دعوتنا

مصـارحة

نحب أن نصارح الناس بغايتنا ، وأن نجلي أمامهم منهجنا ، وأن نوجه إليهم دعوتنا ، في غير لبس ولا غموض ، أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار.

بــراءة

ونحب مع هذا أن يعلم قومنا – و كل المسلمين قومنا – أن دعوة الإخوان المــسلمين دعــوة بريئة نزيهة ، قد تسامت في نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية ، واحتقــرت المنــافع المادية ، وخلفت وراءها الأهواء والأغراض ، ومضت قدما في الطريق التي رسمها الحــق تبارك وتعالى للداعين إليه :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:١٠٨) .

فلسنا نسأل الناس شيئا ، و لا نقتضيهم مالا ولا نطالبهم بأجر ، ولا نستزيد بهم وجاهة ، ولا نريد منهم جزاءا ولا شكورا ، إن أجرنا في ذلك إلا على الذي فطرنا.

عـاطـفة

و نحب أن يعلم قومنا أنهم احب إلينا من أنفسنا ، و أنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء ، و أن تزهق ثمنا لمجدهم و كرامتهم و دينهم و آمالهم إن كان فيها الغناء، و ما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنــا و ملكــت علينــا مشاعرنا ، فأقضت مضاجعنا ، و أسالت مدامعنا ، و إنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى مــا يحيط بقومنا ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس ، فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا، فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب ، و لن نكون عليكم في يوم من الأيام.

لله الفضل و المنة

و لسنا نمتن بشيء ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا ، و إنما نعتقد قول الله تعالى :

(بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات:١٧) .

وكم نتمنى – لو تنفع المنى – أن تتفتح هذه القلوب على مرأى و مسمع من أمتنا ، فينظر إخواننا هل يرون فيها إلا حب الخير لهم و الإشفاق عليهم و التفاني في صالحهم ؟

وهل يجدون إلا ألما مضنيا من هذا الحال التي وصلنا إليها ؟ و لكن حسبنا أن الله يعلم ذلك كله ، و هو وحده الكفيل بالتأييد الموفق للتسديد، بيده أزمة القلوب و مفاتيحها ، من يهد الله فلا مضل له و من يضلل الله فلا هادي له و هو حسبنا و نعم الوكيل . أليس الله بكاف عبده؟

أصناف أربعة

و كل الذي نريده من الناس أن يكونوا أمامنا واحدا من أربعة :

مؤمن :

إما شخص آمن بدعوتنا و صدق بقولنا و أعجب بمبادئنا ، و رأى فيها خيرا اطمأنت إليه نفسه ، و سكن له فؤاده ، فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا و العمل معنا حتى يكثر به عدد المجاهدين و يعلوا بصوته صوت الداعين ، و لا معنى لإيمان لا يتبعه عمل ، و لا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها و التضحية في سبيلها ، و كذلك كان السابقون الأولون ممن شرح الله صدورهم لهدايته فاتبعوا أنبيائه و آمنوا برسالاته و جاهدوا فيه حق جهاده ، و لهؤلاء من الله أجزل الأجر و أن يكون لهم مثل ثواب من اتبعوهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

متردد :

وإما شخص لم يستبين وجه الحق ، و لم يتعرف في قولنا معنى الإخلاص و الفائدة ، فهذا نتركه لتردده و نوصيه بأن يتصل بنا عن كثب ، و يقرأ عنا من قريب أو بعيد ، و يطالع كتاباتنا و يزور أنديتنا و يتعرف إلى إخواننا ، فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله ، و كذلك كان شأن المترددين من أتباع الرسل من قبل .

نفــعي :

وإما شخص لا يريد أن يبذل معونته إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة و ما يجره هذا البذل له من مغنم فنقول له : حنانيك ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله إن أخلصت ، و الجنــة إن علم فيك خيرا ، أما نحن فمغمورون جاها فقراء مالا ، شأننا التضحية بما معنا و بذل ما في أيدينا ، و رجاؤنا رضوان الله سبحانه و تعالى و هو نعم المولى و نعم النصير ، فإن كــشف الله الغشاوة عن قلبه و أزاح كابوس الطمع عن فؤاده فسيعلم أن ما عند الله خير و أبقــى ، و سينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عرض الحياة الدنيا لينال ثواب الله في العقبى ، و ما عندكم ينفد و ما عند الله باق ، و إن كانت الأخرى فالله عني عمن لا يرى لله الحق الأول في نفسه و ماله و دنياه و آخرته و موته و حياته ، و كذلك كان شأن قوم من أشباهه حين أبــوا مبايعة رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا أن يجعل لهم الأمر من بعده ، فما كــان جوابــه صلى الله عليه و سلم إلا أن أعلمهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عبــاده ، و العاقبــة للمتقين

متحامــل :

و إما شخص أساء فينا ظنه و أحاطت بنا شكوكه ، فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم ، و لا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك ، و يأبى إلا أن يلج في غروره و يسدر في شكوكه و يظل مع أوهامه ، فهذا ندعو الله لنا و له أن يرينا الحق حقا و يرزقنا اتباعه و الباطل باطلا و يرزقنا اجتنابه ، و أن يلهمنا و إياه الرشد ، ندعوه إن قبل الدعاء و نناديه إن أجاب النداء و ندعو الله فيه و هو أهل الرجاء ، و لقد أنزل الله على نبيه الكريم في صنف من الناس :

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص:٥٦) .

وهذا سنظل نحبه و نرجو فيئه إلينا و اقتناعه بدعوتنا ، و إنما شعارنا معه ما أرشــدنا إليــه المصطفى صلى الله عليه و سلم من قبل : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

نحب أن يكون الناس معنا واحدا من هؤلاء ، و قد حان الوقت الذي يجب فيه على المسلم أن يدرك غايته و يحدد وجهته ، و يعمل لهذه الوجهة حتى يصل إلى غايته المنشودة ، أما تلــك الغفلة السادرة و الخطرات اللاهية و القلوب الساهية و الانصياع الأعمى و اتباع كل ناعق فما هو من سبيل المؤمنين في شيء .

فـنـاء

و نحب أن يعلم قومنا إلى جانب هذا أن هذه الدعوة لا يصلح لها إلا من حاطهـا مـن كـل جوانبها و وهب لها ما تكلفه إياه من نفسه و ماله و وقته و صحته ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٢٤) .

فهي دعوة لا تقبل الشركة إذ أن طبيعتها الوحدة فمن استعد لذلك فقد عاش بها و عاشت به ، و من ضعف عن هذا العبء فسيحرم ثواب المجاهدين و يكون مع المخلفـين و يقعـد مـع القاعدين ، و يستبدل الله لدعوته به قوما آخرين (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَـى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) (المائدة:٥٤) .

وضـوح

نحن ندعو الناس إلي (مبدأ) .. مبدأ واضح محدود مسلم به منهم جميعاً ، هم جميعاً يعرفونـه ويؤمنون به ويدينون بأحقيته ويعلمون أن فيه خلاصهم وإسعادهم وراحتهم ... مبـدأ أثبتـت التجربة وحكم التاريخ صلاحيته للخلود وأهليته لإصلاح الوجود .

إيمـان

والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ أنه عندهم إيمان مخـدر نـائم فـي نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا علي حكمه ولا أن يعملون بمقتضاه ، علي حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين . ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين أن نؤمن بالفكرة إيمانا يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنا أنها سـتحملنا علي نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها

أو تنتصر بنا ، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته ، فهو لا يفكر في العمل لها ولا بحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها ، بل إنه قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان حتى يعمل علي ضدها وهو يشعر أو لا يشعر ؟ أولست تضحك عجباً حين تري رجلاً من رجال الفكر والعمل والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار ملحداً مع الملحدين وعابداً مع العابدين ! .

هذا الخور أو النسيان أو الغفلة أو النوم أو قل ما شئت هو الذي جعلنا نحاول أن نوقظ (مبدأنا) وهو هو المبدأ المسلم به من قومنا في نفوس هؤلاء القوم المحبوبين .

دعـــوات

وإذن سأعود إلي أول كلمتي فأقول إن دعوة الإخوان المسلمين دعوة مبدأ ، وفي الشرق والغرب اليوم دعوات ومبادئ وفكر ومذاهب وآراء ومنازع كلها تتقسم عقول الناس وتتنازع ألبابهم ، وكل منها يزينه أهله ويقوم بالدعاية له أبناؤه وأتباعه وعشاقه ومريدوه ، ويدعون له المزايا والمحاسن ويبالغون في هذا الادعاء ما يبرزه للناس جميلاً خلاباً رائعاً .

دعاة

والدعاة اليوم غيرهم بالأمس فهم مثقفون مجهزون مدربون أخصائيون – ولا سيما في البلاد الغربية – حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرائق الدعاية ، وتتلمس لها في نفوس الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها إلي الاقتناع والاتباع .

وسـائل

و وسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس كذلك ، فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى في خطبـــة أو اجتماع أو كلمة تكتب في رسالة أو خطاب ، أما الآن فنشرات و مجلات و جرائد و رسالات و مسارح و خيالات و حاك و مذياع ، و قد ذلل ذلك كله سبل الوصول إلى قلـــوب النـــاس جميعهم ، نساء و رجالا في بيوتهم و متاجرهم و مصانعهم و مزارعهم

لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل جميعا حتى يـــأتي عملهـــم بثمرتـــه المطلوبة

و مالي و لهذا الاستطراد ؟ سأعود مرة ثانية فأقول إن العالم الآن في حال تخمة بالدعوات ما بين سياسية و قومية و وطنية و اقتصادية و عسكرية و سلمية ، فأين دعوة الإخوان المسلمين من هذا المزيج المركب كله ؟

سيدعوني ذلك أن أتكلم في أمرين : أولهما هيكل دعوتنا الإيجابي المجرد ، ثم بعد ذلك موقفها من كل نوع من أنواع الدعوات .

لا تؤاخذني بهذا الاستطراد فقد أخذت على نفسي أن اكتب في كمـــا أتحـــدث ، و أن أتنـــاول موضوعي بهذا اللون من ألوان الكتابة في غير تكلف ولا عناء ، و إنما أريد أن يفهمني كمـــا الناس أنا و يصل كلامي إلى نفوسهم خاليا من التزويق و التقسيم.

إسـلامنا

اسمع يا أخي : دعوتنا دعوة أجمع ما توصف به أنها (إسلامية) و لهذه الكلمة معنى واســـع غير ذلك المعنى الضيق الذي يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينـــتظم شـــؤون الحياة جميعا، و يفتي في كل شأن منها و يضع له نظاما محكما دقيقا، و لا يقف مكتوفا أمـــام المشكلات الحيوية و النظم التي لا بد منها لإصلاح الناس. فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، و حصروا أنفسهم و أفهامهم في هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور.

و لكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شؤون الدنيا و الآخـــرة ، و لسنا ندعي هذا ادعاء أو نتوسع فيه من أنفسنا ، و إنما هو ما فهمناه من كتـــاب الله و ســـيرة

المسلمين الأولين، فإن شاء القارئ أن يفهم دعوة الإخوان بشيء أوسع من كلمة إسلامية فليمسك بمصحفه و ليجرد نفسه من الهوى و الغاية ثم يتفهم ما عليه القرآن فسيرى في ذلك دعوة الإخوان.

أجل : دعوتنا إسلامية ، بكل ما تحتمل الكلمة من معان ، فافهم فيها ما شئت بعد ذلك و أنت في فهمك هذا مقيد بكتاب الله و سنة رسوله و سيرة السلف الصالحين من المسلمين ، فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام و دعامته و أما سنة نبيه فهي مبينة الكتاب و شارحته و أما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره و الآخذون بتعاليمه و هم المثل العملية و الصورة الماثلة لهذه الأوامر و التعاليم.

موقفنا من الدعوات المختلفة

و موقفنا من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر ففرقت القلوب و بلبلت الأفكار أن نزنها بميزان دعوتنا فما وافقها فمرحبا به و ما خالفها فنحن براء منه و نحن مؤمنون بأن دعوتنا عامة محيطة لا تغادر جزءا صالحا من أية دعوة إلا ألمت به و أشارت إليه

الوطنية

افتتن كثير من الناس بدعوة الوطنية تارة و القومية تارة أخرى و بخاصة في الشرق حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها و كرامتها و استقلالها و أخذت من مالها و من دمها و حيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضا ، فهي تحاول الخلاص منه بكل ما في و سعها من قوة و منعة و جهاد و جلاد ، فانطلقت ألسن الزعماء و سالت انهار الصحف ، و كتب الكاتبون و خطب الخطباء و هتف الهاتفون باسم الوطنية و جلال القومية

حسن ذلك و جميل و لكن من غير الحسن وغير الجميل أنك تحاول إفهام الشعوب الشرقية و هي مسلمة أن ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى و أسمى و أنبل مما هو في أفـواه الغـربيين و كتابات الأوروبيين أبوا ذلك عليك و لجوا في تقليدهم يعمهون ، و زعموا لك أن الإسلام مـن ناحية و هذه الفكرة من ناحية أخرى ، و ظن بعضهم أن ذلك مما يفرق وحدة الأمة و يضعف رابطة الشباب

هذا الوهم الخاطئ كان خطرا على الشعوب الشرقية من كل الوجهات و بهذا الوهم أحببت أن أعرض هنا إلى موقف الإخوان المسلمين و دعوتهم من فكرة الوطنية و ذلك الموقـف الـذي ارتضوه لأنفسهم و الذي يريدون و يحاولون أن يرضاه الناس معهم .

وطنية الحنين

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض، وألفتها والحنين إليها والانعطاف حولها، فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهة، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى، وإن بلالا الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته، ودينه هو بلال الذي كان يهتـف فـي دار الهجـرة بالحنين إلى مكة في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذ خر وجليـل
وهل أردن يوما مياه مجـنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولقد سمع رسول ص وصف مكة من أصيل فجرى دمعه حنينا إليها وقال: (يـا أصـيل دع القلوب تقر).

وطنية الحرية والعزة

وإن كانوا يريدون أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير الوطن من الغاصـبين وتـوفير استقلاله، وغرس مبادئ العزة والحرية في نفوس أبنائه، فنحن معهم في ذلك أيضا وقد شـدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد، فقال تبارك وتعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون:٨) ، ويقول: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) (النساء:١٤١) .

وطنية المجتمع

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم، فذلك نوافقهم فيه أيضا ويراه الإسلام فريضة لازمة، فيقول نبيه صلى الله عليه وسلم : (وكونوا عباد الله إخوانا) ، ويقول القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (آل عمران:١١٨) .

وطنية الفتح

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد وسيادة الأرض فقد فرض ذلك الإسلام ووجه الفاتحين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح، فذلك قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ) (البقرة:١٩٣).

وطنية الحزبية

و إن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر و تتضاغن و تتراشق بالسباب و تترامى بالتهم و يكيد بعضها لبعض ، و تتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء و شكلتها الغايات و الأعراض و فسرتها الأفهام و فق المصالح الشخصية ، و العدو يستغل كل ذلك لمصلحته و يزيد وقود هذه النار اشتعالا يفرقهم في الحق و يجمعهم على الباطل ، و يحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض و تعاون بعضهم مع بعض و يحل لهم هذه الصلة به و الالتفات حوله فلا يقصدون إلا داره و لا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها و لا للناس

فها أنت ذا قد رأيت أننا مع دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد و العباد ، و قد رأيت مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام

حدود وطنيتنا

أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية ، فكل بقعة فيها مسلم يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وطن عندنا له حرمته و قداسته و حبه و الإخلاص له و الجهاد في سبيل خيره ، و كل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا و إخواننا نهتم لهم و نشعر بشعورهم و نحس بإحساسهم .

ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض ، ويظهر ذلك الفارق العملي فيما إذا أرادت أمة من الأمم أن تقوى نفسها على حساب غيرها فنحن لا نرضى ذلك على حساب أي قطر إسلامي ، وإنما نطلب القوة لنا جميعا ، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون في ذلك بأسا، ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى ويضرب العدو بعضهم ببعض .

غاية وطنيتنا

هذه واحدة . والثانية أن الوطنيين فقط ، جل ما يقصدون إليه تخليص بلادهم فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك اهتموا بالنواحي المادية كما تفعل أوربا الآن ، أما نحن فنعتقد أن المسلم في عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله في سبيل أدائها تلك هداية البشر بنور الإسلام ، و رفع علمه خفاقا في كل ربوع الأرض ، لا يبغي بذلك مالا و لا جاها و سلطاننا على أحد و لا استعبادا لشعب ، و إنما يبغي وجه الله وحده و إسعاد العالم بدينه و إعلاء كلمته ، و ذلك ما حدا بالسلف الصالحين رضوان الله عليهم إلى هذه الفتوح القدسية التي أدهشت الدنيا و أربت على كل ما عرف التاريخ من سرعة و عدل ونبل و فضل .

وحدة :

و أحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل إن الجري عن هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التي تتألف من عناصر دينية مختلفة ، فإن الإسلام و هو دين الوحدة و المساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير ، (لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي

الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة:٨) ، فمن أين يأتي التفريق إذاً؟

أفرأيت بعد كيف أننا متفقون مع أشد الناس غلوا في الوطنية في حب الخير للبلاد و الجهاد في سبيل في سبيل تخليصها و خيرها و ارتقائها ، و نعمل و نؤيد كل من يسعى في ذلك بإخلاص ، بل أحب أن تعلم أن مهمتهم إن كانت تنتهي بتحرير الوطن و استرداد مجده فإن ذلك عند الإخوان المسلمين بعض الطريق فقط أو مرحلة منه واحدة و يبقى بعد ذلك أن يعملوا لترفع راية الوطن الإسلامي على كل بقاع الأرض و يخفق لواء المصحف في كل مكان .

القومية

و الآن سأتحدث إليك عن موقفنا من مبدأ القومية :

قومية المجد

إن كان الذين يعتزون بمبدأ "القومية" يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف في مراقي المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة وأن تكون لهم بهم في ذلك قدوة حسنة، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به، وهل عدتنا في إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين؟ ولعل الإشارة إلى هذا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) ، فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل.

قومية الأمة

وإذا قصد بالقومية أن عشيرة الرجل وأمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك، ومن ذا الذي لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم؟

لعمري لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

وإذا قصد بالقومية أننا جميعا مبتلون مطالبون بالعمل والجهاد، فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقي إن شاء الله في ساحة النصر فنعم التقسيم هذا، ومن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل في ميدانها حتى نلتقي جميعا في بحبوحة الحرية والخلاص؟

كل هذا وأشباهه في معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام، وهو مقياسنا، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه.

القومية الجاهلية

أما أن يراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت، والتحلل من عقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس، كما فعلت بعض الدول في المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية، فذلك في القومية معنى ذميم وخيم العاقبة وسيئ المغبة، يؤدي بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرقه ونبله، ولا يضر ذلك دين الله شيئا : (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد:٣٨) .

قومية العدوان

وأما أن يراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها في سبيل عزة أمة وبقائها، كما تنادي بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلا، بل كما تدعي كل أمة تنادي بأنها فوق الجميع.فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية في شيء، ومعناه أن يتناحر الجنس البشري في سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه.

دعامتان

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئا من هذه الألقاب والأسماء التي يتنابز بها الناس، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل بل أكمل معلم علم الإنسان الخير: (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). ما أروع هذا وأجمله وأعدله، الناس لآدم فهم في ذلك أكفاء، والناس

يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس في الخير، دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبشر إلى علياء السموات، الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالم بعضهم بعضا، ويرحم بعضهم بعضا، ويدل بعضهم بعضا على الخير، والتفاضل بالأعمال. فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية، فهل رأيت سموا بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية؟

خواص العروبة:

ولسنا مع هذا ننكر خواص الأمم ومميزاتها الخلقية، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخلق، ونعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التي كلفها كل شعب، تلك هي النهوض بالإنسانية، ولعلك لست واجدا في التاريخ من أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا استطراد اقتضاه السير في البحث و لا أحب أن أتابعه حتى لا يشط بنا القول و لكن أعود إلى ما نحن بسبيله

رباط العقيدة

أما إذ عرفت هذا فاعلم – أيدك الله – أن الإخوان المسلمين بالنسبة إليهم قسمين :

قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله و كتابه و آمن ببعثه و رسوله و ما جاء به ، و هؤلاء تربطنا بهم أقدس الروابط ، رابطة العقيدة و هي عندنا أقدس من رابطة الدم و رابطة الأرض ، فهؤلاء هم قومنا الأقربون الذين نحنّ إليهم ونعمل في سبيلهم و نذود عن حماهم و نفتديهم بالنفس و المال ، في أي أرض كانوا و من أية سلالة انحدروا .

و قوم ليسوا كذلك و لم نرتبط معهم بعد بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا و نحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا ، و نعتقد أن بيننا و بينهم رابطة هي رابطة الدعوة ، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لنه خير الإنسانية كلها ، و أن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد

لها الدين نفسه من سبل و وسائل ، فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يـــرد بـــه عنوان المعتدين .

أما إذا أردت ذلك من كتاب الله فاسمع :

١ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (الحجرات:١٠) .

٢ – (لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ) (الممتحنة:٨-٩) .

و لعلي أكون بذلك قد كشفت لك عن هذه الناحية من دعوتنا بما لا يدعها في نفسك ملتبسة أو غامضة ، لعلك بعد ذلك عرفت إلى أي قبيل ينتسب الإخوان المسلمون

أمام الخلافات الدينية

أتحدث إليك الآن عن دعوتنا أما الخلافات الدينية و الآراء المذهبية.

نجمع ولا نفرق

اعلم ــ فقهك الله ــ أولا: أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تنتسب إلى طائفة خاصة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجـدى والإنتـاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كـان، تحب الإجماع، وتكره الشذوذ وإن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأسـاس مـا انتصروا به الحب والوحدة. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولهـا، هـذه قاعـدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم، وعقيدة راسخة في نفوسنا، نصدر عنها وندعو إليها.

الخلاف ضروري

ونحن مع هذا نعتقد أن الخلاف في فروع الدين أمر لا بد منه ضرورة، ولا يمكن أن نتحد في هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عدة: منها اختلاف العقول في قوة الاستنباط أو ضعفه،

وإدراك الدلائل والجهل بها والغوص على أعماق المعاني، وارتباط الحقائق بعضها بـــبعض، والدين آيات وأحاديث ونصوص يفسرها العقل والرأي في حدود اللغة وقوانينها، والناس فـــي ذلك جد متفاوتين فلا بد من خلاف.

ومنها سعة العلم وضيقه، وإن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك، وقد قال مالك لأبي جعفر: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علـــم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة.

ومنها اختلاف البيئات حتى أن التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة، وإنك لترى الإمام الشافعي رضي الله عنه يفتي بالقديم في العراق ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهمـــا آخـــذ بمـــا استبان له وما اتضح عنده لا يعدو أن يتحرى الحق في كليهما.

ومنها اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين لها، فبينما نجد هذا الراوي ثقة عنـــد هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ به، تراه مجروحا عند غيره لما علم عن حاله.

ومنها اختلاف تقدير الدلالات فهذا يعتبر عمل الناس مقدما على حبر الآحـــاد مـــثلا، وذاك لا يقول معه به، وهكذا..

الإجماع على أمر فرعي متعذر

كل هذه أسباب جعلتنا نعتقد أن الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بـــل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور، ويماشي الأزمان، وهو لهذا سهل مرن هين، لين، لا جمود فيه ولا تشديد.

نعتذر لمخالفينا:

نعتقد هذا فنلتمس العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدا حائلا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا؟ ففيم

الخلاف إذن؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالا للنظر عندهم كرأيهم عندنا؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم؟

هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخالف بعضهم بعضا في الإفتاء فهل أوقع ذلك اختلافا بينهم في القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم؟ اللهم لا وما حديث صلاة العصر في قريظة ببعيد.

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهدا بالنبوة وأعرفهم بقرائن الأحكام، فما بالنا نتناحر في خلافات تافهة لا خطر لها؟ وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله قد اختلف بعضهم مع بعض وناظر بعضهم بعضا، فلم لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع في أشهر المسائل الفرعية وأوضحها كالأذان الذي ينادى به خمس مرات في اليوم الواحد، ووردت به النصوص والآثار، فما بالك في دقائق المسائل التي مرجعها إلى الرأي والاستنباط؟

وثم أمر آخر جدير بالنظر، إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى (الخليفة) وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي، ثم يعرضوا قضيتهم عليه، فإن اختلافهم من غير مرجع لا يردهم إلا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات، فهم لهذا أوسع الناس صدرا مع مخالفيهم، ويرون أن مع كل قوم علما، وفي كل دعوة حقا وباطلا، فهم يتحرون الحق ويأخذون به، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم. فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعية في دين الله يمكن أن أجمله لك في أن الإخوان يجيزون الخلاف، ويكرهون التعصب للرأي، ويحاولون الوصول إلى الحق، ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب.

إلى العلاج

يا أخي : اعلم و تعلم أن مثل الأمم في قوتها و ضعفها و شبابها و شيخوختها و صـــحتها و سقمها مثل الأفراد سواء بسواء ، فالفرد بينما تراه قويا معافى صحيحا سليما ، فإذا بك تراه قد انتابته العلل و أحاطت به السقام و هدّت بنيته القوية الأمراض و الآلام ، و لا يزال يـــشكو و يئن حتى تتداركه رحمة الله تبارك و تعالى بطبيب ماهر و نطاسي بارع يعلم موطن العلة و يحسن تشخيصها حتى و يتعرف موضع الداء و يخلص في علاجه ، فإذا بك بعد حين تـــرى هذا المريض و قد عادت إليه قوته و رجعت إليه صحته ، ربما كان بعد هذا العلاج خيرا من قبله .

قل مثل هذا في الأمم تماما ، تعترضها حوادث الزمن بما يهدد كيانهـــا و يـــصدع بنيانهـــا و يسري في مظاهر قوتها سريان الداء ، و لا يزال يلح عليها و يتشبث بها حتى ينال منها فتبدو هزيلة ضعيفة يطمع فيها الطامعون و ينال منها الغاصبون فلا تقوى على رد غاصـــب و لا تمنع من مطامح طامح ، و علاجها إنما يكون بأمور ثلاثة : معرفة موطن الداء ،و الـــصبر على آلام العلاج ، و النطاسي الذي يتولى ذلك حتى يحقق اله على يديه الغاية و يتم الشفاء و الظفر .

الأعـراض

و قد علمتنا التجارب و عرفتنا الحوادث أن داء هذه الأمم الشرقية متـــشعب المنـــاحي كثيـــر الأعراض قد نال من كل مظاهر حياتها ، فهي مصابه في ناحيتها السياسية بالاستعمار مـــن جانب أعدائها ، و الحزبية و الخصومة و الفرقة و الشتات من جانب أبنائها ، و في ناحيتهـــا الاقتصادية بانتشار الربا بين كل طبقاتها و استيلاء الشركات الأجنبية على مواردها و خيراتها ، و هي مصابة من الناحية الفكرية بالفوضى و المروق و الإلحاد يهدم عقائدها و يحطم المثل العليا في نفوس أبنائها ، و في ناحيتها الاجتماعية بالإباحية في عاداتها و أخلاقها و التحلل من عقدة الفضائل ورثتها عن الغر الميامين من أسلافها و بالتقليد الغربي يسري في مناحي حياتها سريان لعاب الأفاعي فيسمم دمائها و يعكر صفو هنائها و بالقوانين الوضعية التي لا تزجـــر مجرما و لا تؤدب معتديا و لا ترد ظالما ، و لا تغني يوما من الأيام غناء القوانين الـــسماوية التي وضعها خالق الخلق و مالك الملك و رب النفوس و بارئها ، و بفوضى في سياسة التعليم و التربية تحول دون التوجيه الصحيح لنشئها و رجال مستقبلها و حملة أمانة النهوض بها ، و في ناحيتها النفسية بيأس قاتل و خمول مميت و جبن فاضح و ذلة حقيرة و خنوثة فاشـــية و

شح و أنانية تكف الأيدي عن البذل و تقف حجابا دون التضحية و تخرج الأمة من صـــفوف المجاهدين إلى اللاهين اللاعبين .

وماذا يرجى من أمة اجتمعت على غزوها كل هذه العوامل بأقوى مظاهرها و أشد أعراضها: الاستعمار و الحزبية ، و الربا و الشركات الأجنبية ، و الإلحاد و الإباحية و فوضى التعليم و التشريع ، و اليأس و الشح ، و الخنوثة و الجبن ، و الإعجاب بالخصم إعجابا يدعو إلى تقليده في كل ما صدر عنه و بخاصة في سيئات أعماله .

إن داء واحدا من هذه الأدواء يكفي لقتل أمم متظاهرة ، فكيف و قد تفشت جميعا في كل أمـــة على حدة ؟ لولا مناعة و حصانة و جلادة و شدة في هذه الأمم الشرقية التي جاذبها خصومها حبل العداء من بعيد ، و دأبوا على تلقيحها بجراثيم هذه الأمراض زمنا طويلا حتى باضت و أفرخت ، لولا ذلك لعفت آثارها و لبادت من الوجود ، و لكن يأبى الله ذلك و المؤمنون .

يا أخي : هذا هو التشخيص الذي يلمسه الإخوان في أمراض هذه الأمة ، و هذا هـــو الـــذي يعملون في سبيل أن يبرئها منه و يعيد إليها ما فقدت من صحة و شباب .

أمل و شعور

أحب أن تعلم يا أخي أننا لسنا يائسين من أنفسنا و أننا نأمل خيرا كثيرا و نعتقد أنه لا يحـــول بيننا و بين النجاح إلا هذا اليأس ، فإذا قوي الأمل في نفوسنا فسنصل إلى خير كثير إن شـــاء الله تعالى، لهذا نحن لسنا يائسين و لا يتطرق إلى قلوبنا و الحمد لله.

و كل ما حولنا يبشر بالأمل رغم تشاؤم المتشائمين، إنك إذا دخلت على مريض فوجدته تدرج من كلام إلى صمت ومن حركة إلى سكون شعرت بقرب نهايته و عسر شفائه و استفحال دائه ، فإذا انعكس الأمر وأخذ يتدرج من صمت إلى كلام و من همود إلى حركة شعرت بقـــرب شفائه و تقدمه في طريق الصحة والعافية. و لقد أتى على هذه الأمم الشرقية حين من الـــدهر جمدت فيه حتى ملها الجمود وسكنت حتى أعياها السكون و لكنها الآن تغلي غليانـــا بيقظـــة شاملة في كل مناحي الحياة، وتضطرم اضطراما بالمشاعر الحية القوية و الأحاسيس العنيفة. و لولا ثقل القيود من جهة والفوضى في التوجيه من جهة أخرى لكـــان لهـــذه اليقظـــة أروع الآثار، و لن تظل هذه القيود قيودا أبد الدهر فإنما الدهر قلب، و ما بين طرفة عين و انتباهتها

يغير الله من حال إلى حال، و لن يظل الحائر حائرا فإنما بعد الحيرة هدى و بعد الفوضى استقرار ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

لهذا لسنا يائسين أبدا ، و آيات الله تبارك و تعالى و أحاديث رسوله صلى اله عليه و سلم وسنته تعالى في تربية الأمم وإنهاض الشعوب بعد أن تشرف على الفناء ، و ما قصه علينا في كتابه ، كل ذلك يناديا بالأمل الواسع ، و يرشدنا إلى طريق النهوض و لقد علم المسلون – لو يتعلمون – .

و إنك لتقرأ الآية الكريمة في أول سورة القصص:

 (طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص:١-٦) .

تقرأ هذه الآية الكريمة فترى كيف يطغى الباطل في صولته و يعتز بقوته، و يطمئن إلى جبروته و يغفل عن عين الحق التي ترقبه، حتى إذا فرح بما أوتي أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، و أبت إرادة الله إلا أن تنتصر للمظلومين و تأخذ بناصر المهضومين المستضعفين فإذا الباطل منهار من أساسه و إذا الحق قائم البنيان متين الأركان وإذا أهله هم الغالبون ، وليس بعد هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات كتاب الله عذر في اليأس والقنوط لأمة من أمم الإسلام تؤمن بالله ورسوله وكتابه. فمتى يتفقه المسلمون في كتاب الله ؟

لمثل هذا يا أخي وهو كثير في دين الله لم ييأس الإخوان المسلمون من أن ينزل نصر الله على هذه الأمم رغم ما يبدوا أمامها من عقبات ، وعلى ضوء هذا الأمل يعملون عمل الآمل المجد و الله المستعان.

أما الوسيلة التي وعدتك الكلام عليها فهي أركان ثلاثة تدور عليها فكرة الإخوان:

أولها_ المنهاج الصحيح: وقد وجده الإخوان في كتاب الله و سنة رسوله و أحكام الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضة نقية بعيدة عن الدخائل و المفتريات فعكفوا على دراسة الإسلام على هذا الأساس دراسة سهلة واسعة مستوعبة.

و ثانيها_ العاملون المؤمنون: و لهذا أخذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقا لا هوادة فيه و لا لين، و هم بحمد الله مؤمنون بفكرتهم مطمئنون لغايتهم واثقون بتأييد الله إياهم ما داموا له يعملون و على هدي رسوله يسيرون.

و ثالثها_ القيادة الحازمة الموثوق بها: و قد وجدها الإخوان المسلمون كذلك، فهم لها مطيعون و تحت لوائها يعملون.

هذا ما أردت أن أتحدث به إليك عن دعوتنا و هو تعبير له تعبير، و أنت يوسف هذه الأحلام، فإن راقك ما نحن عليه فيدك مع أيدينا لنعمل سويا في هذا السبيل و الله و لي توفيقنا و هو حسبنا و نعم الوكيل فنعم المولى و نعم النصير.

إلى أي شيء ندعو الناس؟

تمهيد

قد تتحدث إلى كثير من الناس في موضوعات مختلفة فتعتقد أنك قد أوضحت كل الإيضاح و أبنت كل الإبانة ، و أنك لم تدع سبيلا للكشف عما في نفسك إلا سلكتها ، حتى تركت من تحدثهم على المحجة البيضاء و جعلت لهم ما تريد بحديثك من الحقائق كفلق الصبح أو كالشمس في رابعة النهار كما يقولون ، و ما أشد دهشتك بعد قيل حين ينكشف لك أن القوم لم يفهموا عنك و لم يدركوا قولك .

رأيت ذلك مرات و لمسته من عدة مواقف ، و اعتقد أن السر فيه لا يعدوا أحد أمرين :

إما أن الذي يقيس به كل منا و ما يسمع عنه مختلف ، فيختلف تبعا لذلك الفهم و الإدراك ، و إما أن يكون القول في ذاته ملتبسا غامضا و إن اعتقد قائله أنه واضح مكشوف .

المقياس

و أنا أريد في هذه الكلمة أن أكشف للناس عن دعوة الإخوان المسلمين و غايتها و مقاصدها و أساليبها و وسائلها في صراحة و وضوح و في بيان و جلاء ، و أحب أولا أن أحدد المقياس الذي نقيس به هذا التوضيح ، و سأجتهد في أن يكون القول سهلا ميسورا لا يتعذر فهمه على قارئ يحب أن يستفيد ، و أظن أن أحدا من الأمة الإسلامية جميعا لا يخالفني في أن يكون هذا المقياس هو كتاب الله نستقي من فيضه و نستمد من بحره و نرجع إلى حكمه .

يا قومنا ..

إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد و أسس المصالح الاجتماعية ، و كليات الشرائع الدنيوية ، فيه أوامر وفيه نواه ، فهل عمل المسلمون بما في القرآن فاعتقدوا و أيقنوا بما ذكر الله من المعتقدات ، و فهموا ما أوضح لهم من الغايات ؟ و هل طبقوا شرائعه الاجتماعية و الحيوية على تصرفاتهم في شؤون حياتهم ؟ إن انتهينا من بحثنا أنهم كذلك فقد وصلنا معا إلى الغاية ، و إن تكشف البحث عن بعدهم عن طريق القرآن و إهمالهم لتعاليمه و أوامره فاعلم أن مهمتنا أن نعود بأنفسنا و بمن تبعنا إلى هذا السبيل

غاية الحياة في القرآن

إن القرآن حدد غايات الحياة و مقاصد الناس فيها فبين أن قوما غايتهم من الحياة الكل و المتعة

فقال تبارك و تعالى :

 (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) (محمد:١٢) .

و بين أن قوما مهمتهم في الحياة الزينة و العرض الزائل فقال تبارك و تعالى :

 (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران:١٤)

وبين أن قوما آخرين شأنهم في الحياة إيقاد الفتن و إحياء الشرور ، أولئك الذين قال الله فيهم:

 (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ) (البقرة:٢٠٤-٢٠٥)

تلك مقاصد من مقاصد الناس في الحياة نزه الله المؤمنين عنها و برأهم منها و كلفهم مهمة أرقى ، و ألقى على عاتقهم واجبا أسمى ذلك الواجب هو: هداية الناس إلى الحق ، و إرشاد الناس جميعا إلى الخير ، و إنارة العالم كله بشمس الإسلام فذلك قوله تبارك و تعالى :

 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ و تَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٧-٧٨).

و معنى هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة ، و يعطيهم حق الهيمنة و السيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة و إذا فذلك من شأننا لا من شأن الغرب و لمدنية الإسلام لا لمدنية المادة .

وصاية المسلم تضحية لا استفادة

ثم بين الله تبارك و تعالى أن المؤمن في سبيل هذه الغاية قد باع لله نفسه و ماله فليس له فيها شيء و إنما هي وقف على نجاح هذه الدعوة وإيصالها إلى قلوب الناس و ذلك قوله تعالى :

 (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) (التوبة:١١١).

و ومن ذلك نرى المسلم يجعل دنياه وقفا على دعونه ليكسب آخرته جزاء تضحيته

و من هنا كان الفاتح المسلم أستاذا يتصف بكل ما يجب أن يتحلى به الأستاذ من نور و هداية و رحمة و رأفة ، وكان الفتح الإسلامي فتح تمدين و تحضير و إرشاد و تعليم ، و أين هذا ما يقوم به الاستعمار الغربي الآن ؟

أين المسلمون من هذه الغاية؟

فبربك عزيزي : هل فهم المسلمون من كتاب ربهم هذا المعنى فسمت نفوسهم و رقت أرواحهم ، و تحرروا من رق المادة و تطهروا من لذة الشهوات و الأهواء ، و ترفعوا عن سفاسف الأمور و دنايا المقاصد ، و وجهوا وجوههم للذي فطر السموات و الأرض حنفاء يعلون كلمة الله و يجاهدون في سبيله ، و ينشرون دينه و يذودون عن حياض شريعته ، أم هؤلاء أسرى الشهوات و عبيد الأهواء و المطامع ، كل همهم لقمة لينة و مركب فاره و حلة جميلة و نومة مريحة و امرأة وضيئة و مظهر كاذب و لقب أجوف

رضوا بالأماني و ابتلوا بحظوظهم و خاضوا بحار الجد دعوى فما ابتلوا

و صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة)

الغاية أصل الأعمال

و بما أن الغاية هي التي تدفع إلى الطريق ، و لما كانت الغاية في أمتنا غامضة مضطربة كان لابد من أن نوضح و نحدد ، و أظننا وصلنا إلى كثير من التوضيح و اتفقنا على أن مهمتنا سيادة الدنيا و إرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة و تعاليمه التي بغيرها أن يسعد الإنسان .

مصادر غايتنا

تلك هي الرسالة التي يريد الإخوان المسلمون أن يبلغوها للناس و أن تفهمها الأمة الإسلامية حق الفهم ، و تهب لإنفاذها في عزم و في مضاء ، لم يبتعها الإخوان ابتداعا ، و لم يختلقوها من أنفسهم ، و إنما هي الرسالة التي تتجلى في كل آية من آيات القرآن الكريم ، و تبدوا في غاية الوضوح في كل حديث من أحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه و سلم و تظهر في كل عمل من أعمال الصدر الأول الذين هم المثل الأعلى لفهم الإسلام و إنفاذ تعاليم الإسلام ، فإن شاء المسلمون في أن يقبلوا هذه الرسالة كان ذلك دليل الإيمان و الإسلام الصحيح ، و إن رأوا فيها حرجا أو غضاضة فبيننا و بينهم كتاب الله تبارك و تعالى ، حكم عدل و قول فصل يحكم بيننا و بين إخواننا و يظهر الحق لنا أو علينا

 (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِين) (الأعراف:٨٩).

استطراد

يتساءل كثير من إخواننا الذين أحببناهم من كل قلوبنا و وقفنا لخيرهم و العمل لمصلحتهم الدنيوية و الأخروية جهودنا و أموالنا و أرواحنا، و فنينا في هذه الغاية، غاية إسعاد أمتنا و إخواننا ، عن أموالنا و أنفسنا.

و كم أتمنى أن يطلع هؤلاء الإخوان المتسائلون على شباب الإخوان المسلمين و قد سهرت عيونهم و الناس نيام، و شغلت نفوسهم و الخليون هجع، و أكب أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل عاملا مجتهدا و مفكرا مجدا، و لا يزال كذلك طول شهره، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده موردا لجماعته، و نفقته نفقة لدعوته، و ماله خادما لغايته، و لسان

حاله يقول: لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الله. و معاذ الله أن نمن على أمتنا فنحن منها و لها و إنما نتوسل إليها بهذه التضحية أن تفقه دعوتنا و تستجيب لندائنا.

من أين المال ؟

يتساءل هؤلاء الإخوان المحبوبون الذين يرمقون الإخوان المسلمين عن بعد و يرقبونهم عن كثب قائلين: من أين ينفقون؟ و أنى لهم المال اللازم لدعوة نجحت و ازدهرت كدعوتهم و الوقت عصيب و النفوس شحيحة؟

و إني أجيب هؤلاء بأن الدعوات الدينية عمادها الإيمان قبل المال ، و العقيدة قبل الأعراض الزائلة ، و إذا وجد المؤمن الصحيح و جدت معه وسائل النجاح جميعا، و إن في مال الإخوان المسلمين القليل الذي يقتطعونه من نفقاتهم و يقتصدونه من ضرورياتهم و مطالب بيوتهم و أولادهم، و يجودون به طيبة نفوسهم سخية به قلوبهم، يود أحدهم لو كان له أضعاف أضعاف فينفقه في سبيل الله ، فإذا لم يجد بعضهم شيئا تولوا و أعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. في هذا المال القليل و الإيمان الكبير و لله الحمد و العزة بلاغ لقوم عابدين و نجاح للعاملين الصادقين ، و إن الله الذي بيده كل شيء ليبارك في القرش الواحد من قروش الإخوان ، و (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) (البقرة:٢٧٦).

 (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) (الروم:٣٩) .

نحن و السياسة

و يقول قوم آخرون إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون و دعوتهم سياسية و لهم من وراء ذلك مآرب أخرى . و لا ندري إلى متى تتقارض أمتنا التهم و تتبادل الظنون و تتنابز بالألقاب، و تترك يقينا يؤيده الواقع في سبيل ظن توحيه الشكوك.

يا قومنا: إننا نناديكم و القرآن في يميننا و السنة في شمالنا، و عمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، و ندعوكم إلى الإسلام و تعاليم الإسلام و أحكام الإسلام ، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، و إن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا فنحن أعرق الناس و الحمد لله في السياسة، و إن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات و انكشفت الغايات.

يا قومنا: لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق و الأسماء عن الغايات، و لا الأعراض عن الجوهر، و إن للإسلام لسياسة في طيها سعادة الدنيا و صلاح الآخرة، و تلك هي سياستنا لا نبغي بها بديلا فسوسوا بها أنفسكم، و احملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية، و لتعلمن نبأه بعد حين.

قوميتنا وعلى أي أساس ترتكز؟

أيها الأخ تعال نصغ معا إلى صوت العزة الإلهية يدوي في أجواء الآفاق ، ويمـــلأ الأرض و السبع الطباق ، و يوحي في نفس كل مؤمن أسمى معاني العزة و الفخار ، حين يـــسمع هـــذا النداء الذي تستمع له السموات و الأرض و من فيهن منذ أن بلغه المبين إلى هذا الوجود ، إلى حيث لا نهاية إذا كتب له الخلود :

أجل أجل يا أخي : هذا نداء ربك إليك ، فلبيك اللهم لبيك ، و حمدا و شكرا لك لانحصي ثناء عليك ، أنت ولي المؤمنين و نصير العاملين و المدافع عن المظلومين الـــذين حوربـــوا فـــي بيوتهم و أخرجوا من ديارهم ، عز من لجأ إليك و انتصر من احتمى بحماك

أجل أجل يا أخي : تعال نستمع معا إلى صوت القرآن الكريم ، و نطرب بتلاوة الآيات البينات ، و نسجل جمال هذه العزة في صحائف ذلك الكتاب المطهر .

إلي إلي يا أخي واسمع قول الله تبارك وتعالى :

١ – (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة:٢٥٧)

٢ – (بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ) (آل عمران:١٥٠) .

٣ – (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (المائدة:٥٥).

٤ – (إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) (الأعراف:١٩٦).

٥ – (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة:٥١).

٦ – (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُــونَ) (يونس:٦٢-٦٣).

٧ – (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) (محمد:١١).

ألست ترى في هذه الآيات البينات أن الله تبارك و تعالى ينسبك إلى نفسه و تمنحــك فــضل ولايته و يفيض عليك من فيض عزته ؟

و في الحديث الشريف الذي يرويه المختار صلى الله عليه و سلم عن ربه فيما معناه : (يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : يا بني آدم جعلت نسبا وجعلتم نسبا فقلتم فلان ابن فلان وقلت : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " فاليوم أرفع نسبى وأوضع نسبكم)

لهذا أيها الأخ الكريم فضل السلف الصالح أن يرفعوا نسبتهم إلى الله تبارك و تعالى ، ويجعلوا أساس صلاتهم ومحور أعمالهم تحقيق هذه النسبة الشريفة فينادي أحدهم صاحبه قائلا:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

في حين يجيب الآخر من سأله عن أبيه أتميمي هو أم قيسي :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ليس بعد ذلك عزة

أيها الأخ العزيز : إن الناس إنما يفخرون بأنسابهم لما يأنسون من المجد والشرف في أعمــال جدودهم ، ولما يقصدون من نفخ روح العزة و الكرامة فــي نفــوس أبنــائهم وراء هــذين المقصدين شئ، أفلا ترى نسبتك إلى الله تبارك وتعالى أسمى ما يطمح إليه الطــامحون مــن معاني العزة والمجد : (فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً) (النساء:١٣٩) ، وأولى ما يرفع نفسك إلى عليين وينفخ فيها روح النهوض مع العاملين ، و أي شرف أكبر و أي رافع إلــى فضيلة أعظم من أن ترى نفسك ربانيا ، بالله صلتك وإليه نسبتك ، ولأمر ما قال الله تبــارك وتعالى : (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَــا كُنْــتُمْ تَدْرُسُــونَ) (آل عمران:٧٩) .

أعظم مصادر القوة

و في النسبة إلى الحق تبارك و تعالى معنى آخر يدركه من التحق بهذه النسبة ، ذلك هو الفيض الأعم من الإيمان ، و الثقة بالنجاح الذي يغمر قلبك فلا تخشى الناس جميعا و لا ترهب العالم كله إن وقف أمامك يحاول ان ينال عقيدتك أو ينتقص من مبدأك :

 (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران:١٧٣) .

و لأمر ما كان الواحد من أولئك القلائل المؤمنين بالله و ثقته و تأييده يقف أمام الجحفل اللجب و الجيش اللهام ، فلا يرهب صولته و لا يخشى أذاه لأنه لا يخشى أحدا إلا الله ، و أي شيء أعظم من تلك القوة التي تنسكب من قلب الرجل المؤمن حين يجيش صدره بقول الله :

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ) (آل عمران:١٦٠) .

قوميتنا عالية النسبة

و هناك معنى آخر من معاني السمو الاجتماعي في انتساب الناس إلى الله تبارك و تعالى ، ذلك هو تآخي الشعوب و تآزر الجماعات و القضاء على تلك المطامع التي توحي بها العصبية و يؤرث نيرانها بين الأمم التقاطع و التخاصم ، فمن للعالم بان يجتمع بقوة حول راية الله .. ؟

أحلام الأمس و حقائق اليوم

هذا كلام طال عهد المسلمين باستماعه فقد يكون غامضا عليهم غير مفهوم لديهم ، و قد يقول قائل : ما لهؤلاء الجماعة يكتبون في هذه المعاني التي لا يمكن أن تتحقق ، وما بالهم يسبحون في جو الخيال و الأحلام ؟

على رسلكم أيها الإخوان في الإسلام و الملة فغن ما ترونه اليوم غامضا بعيدا كان عند بدهيا قريبا ، و لن يثمر جهادكم حتى يكون كذلك عندكم ، و صدقوني إن المسلمين الأولين فهموا من القرآن لأول ما قرأوه و نزل فيهم ، ما ندلي به اليوم و نقصه عليكم .

و أصارحكم بان عقيدة الإخوان المسلمين يحيون بها يأملون الخير فيها و يموتون عليها ، و يرون فيها كل ما تصبوا إليه نفوسهم من متعة و جمال و إسعاد و حق : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد:١٦) .

أيها الإخوان : إذا اتفقتم معنا على هذا الأساس فاعلموا أن انتسابكم إلى الله تبارك و تعالى يفرض عليكم أن تقدروا المهمة التي ألقاها على عاتقكم ، و تنشطوا للعمل لها و التضحية في سبيلها فهل أنتم فاعلون ؟

مهمة المسلم

إن مهمة المسلم الحق لخصها الله تبارك و تعالى في آية واحدة من كتابه ، و رددها القرآن الكريم بعد ذلك في عدة آيات ، فأما تلك الآية التي اشتملت على مهمة السلمين في الحياة فهي قول الله تبارك وتعالى

 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٧-٧٨).

هذا كلام لا لبس فيه و لا غموض ، و والله إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة ، و إنه لواضح كالصبح ظاهر كالنور ، يملأ الآذان و يدخل على القلوب بغير استئذان ، أفلم يسمعه المسلمون قبل الآن ؟ أم سمعوه و لكن على قلوبهم أقفالا فلا تعي و لا تتدبر ؟

يأمر الله المسلمين أن يركعوا و يسجدوا و أن يقيموا الصلاة التي هي لب العبادة و عمود الإسلام و أظهر مظاهره ، و أن يعبدوا الله و لا يشركوا به شيئا ، و أن يفعلوا الخير ما استطاعوا ، و هو حين يأمرهم بفعل الخير ينهاهم بذلك عن الشر و إن من أول الخير أن تترك الشر ، فما أوجز و ما أبلغ ! و رتب لهم على ذلك النجاح و الفلاح و الفوز و تلك هي المهمة الفردية لكل مسلم التي يجب عليه أن يقوم بها بنفسه في خلوة أو جماعة .

حق الإنسانية

ثم أمرهم بعد ذلك أن يجاهدوا في الله حق جهاده بنشر هذه الدعوة و تعميمها بين الناس بالحجة و البرهان ، فإن أبوا إلا العسف و الجور و التمرد فبالسيف والسنان :

والناس إذ ظلموا البرهان و اعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

حراسة الحق بالقوة

و ما أحكم القائل : (القوة اضمن طريق لإحقاق الحق ، و ما اجمل أن تسير القوة و الحق جنبا إلى جنب)

فهذا الجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية فضلا عن الاحتفاظ بمقدسات الإسلام فريضة الله على المسلمين كما فرض عليهم الصوم و الصلاة و الحج و الزكاة و فعل الخير و ترك الشر

، و ألزمهم إياها و ندبهم إليها ، و لم يعذر في ذلك أحد فيه قوة و استطاعة ، و إنها لآية زاجرة رادعة و موعظة بالغة زاجرة :

 (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ) (التوبة:٤١)

و قد كشف الله سر هذا التكليف و حكمة هذه الفريضة التي افترضها على المسلمين بعد هذا الأمر ، فبين لهم أنه اجتباهم و اختارهم و اصطفاهم دون الناس ليكونوا سواس خلقه و أمناءه على شريعته و خلفاءه في أرضه ، و ورثة رسوله في دعوته ، و مهد لهم الدين و أحكم التشريع و سهل الأحكام و جعلها من الصلاحية لكل زمان و مكان بحيث يتقبلها العالم ، و ترى فيها الإنسانية أمنيتها المرجوة و أملها المنتظر : (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ) (الحج:٧٨)

و تلك هي المهمة الاجتماعية التي ندب الله إليها المسلمين جميعا ، و أن يكونوا صفا واحدا و كتلة و قوة ، و أن يكونوا هم جيش الخلاص الذي ينقذ الإنسانية و يهديها سواء السبيل .

رهبان بالليل فرسان بالنهار

ثم أوضح الحق تبارك و تعالى للناس بعد ذلك الرابطة بين التكاليف من صلاة وصوم بالتكاليف الاجتماعية و أن الأولى وسيلة للثانية ، و أن العقيدة الصحيحة أساسهما معا ، حتى لا يكون لأناس مندوحة من القعود عن فرائضهم الفردية بحجة انهم يعملون للمجموع ، و حتى لا يكون لآخرين مندوحة من القعود عن العمل للمجموع بحجة أنهم مشغولين بعباداتهم مستغرقون في صلتهم لربهم ، فما أدق و احكم ، و من أحسن من الله حديثا ؟

أيها المسلمون : عبادة ربكم و الجهاد في سبيل التمكين لدينكم و إعزاز شريعتكم هي مهمتكم في الحياة ، فإن أديتموها حق الأداء فانتم الفائزون ، و إن أديتم بعضها أو أهملتموها جميعا فإليكم أسوق قول الله تبارك و تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) (المؤمنون:١١٥-١١٦) .

لهذا المعنى جاء أوصاف أصحاب محمد و هم صفوة الله من خلقه و السلف الصالح من عباده : (رهبان بالليل فرسان بالنهار) ترى أحدهم في ليله ماثلا في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم و يبكي بكاء الحزين و يقول : (يا دنيا غري غيري) فإذا انفلق الصباح و دوى النفير يدعو المجاهدين ، رايته رئبالا على صهوة جواده ، يزار الزارة فتدوي لها جنبات الميدان .

بالله عليك ما هذا التناسق العجيب و التزاوج بين الغريب و المزيج الفريد بين عمل الدنيا و مهامها و شؤون الآخرة و روحانيتها ؟ و لكنه الإسلام الذي جمع من كل شيء أحسنه .

استعمار الأستاذية و الإصلام

و لهذا المعنى أيها المسلمون نفر المسلمون ، بعد أن اختار نبيه – صلى الله عليه و سلم – الرفيق الأعلى في أقطار الأرض ، قرآنه في صدورهم و مساكنهم على سروجهم و سيوفهم بأيديهم ، حجتهم واضحة على ألسنتهم يدعون الناس إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال ، فمن أسلم فهو أخوهم له ما لهم و عليه ما عليهم ، و من أدى الجزية فهو في ذمتهم و عهدهم يقومون بحقه و يرعون عهده و يوفون له بشرطه ، و من أبى جالدوه حتى يظهرهم الله عليه ، (وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) (التوبة:٣٢) .

ما فعلوا ذلك لسلطان ، فزهادتهم في الجاه و الشهرة معروفة عند الخاص و العام ، و لقد قضى دينهم على تلك المظاهر الزائفة التي يستمتع بها أقوام على حساب آخرين ، فكان خليفتهم كأحدهم ، يفرض له من المال و العطاء ما لرجل منهم ليس بأفضلهم و لا أدركهم ، و لا يميزه إلا بما أفاض الله عليه من جلال الإيمان و هيبة اليقين ، و لم ذلك لمال ، فحسب أحدهم كسرة يرد بها جوعته و جرعة يطفئ بها ظمأته ، و الصوم لديهم قربة ، و الجوع أحب عندهم من الشبع ، و حظ أحدهم من الملبس ما يستر به عورته ، و كتابهم يناديهم بقول الله تعالى :

 (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) (محمد:١٢)

و نبيهم يقول لهم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة)

إذا لم يكن مخرجهم من ديارهم لجاه أو مال أو سلطة أو استعمار أو استبداد ، و إنما كان لأداء رسالة خاصة هي رسالة نبيهم التي تركها أمانة بين أيديهم ، و أمرهم أن يجاهدوا في سبيلها ، حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله .

آن لنا أن نفهم

كان المسلمون يفهمون هذا قديما و يعملون له و يحملهم إيمانهم على التضحية في سبيله ، أما في هذه الأيام فقد تفرق المسلمون في فهم مهمتهم و اتخذوا من التأويل و التعطيل سندا للقعود و الكسل ، فمن قائل يقول لك : مضى وقت الجهاد و العمل ، و آخر يثبط همتك يقول لك بان الوسائل معدومة و الأمم الإسلامية مقيدة ، و ثالث رضي من دينه كلمات يلوكها لسانه صباح مساء ، و قنع من عبادته بركعات يؤديها و قلبه هواء

لا لا أيها الإخوان ، القرآن يناديكم بوضوح و جلاء :

 (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات:١٥) .

و أما في السنة فيقول لكم الرسول : (إذا ضن الناس بالدينار و الدرهم و تبايعوا بالعينة و تبعوا أذناب البقر و تركوا الجهاد في سبيل الله ، أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم) رواه الأمام أحمد في مسنده ، و الطبراني في الكبير ، و البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر .

و أنتم تقرأون في كتب الفقه ما ألف منها قديما أو حديثا متى يكون الجهاد فرض كفاية و متى يكون فرض عين ، و تعلمون حقائق ذلك و معناه حق العلم ، فما هذا الخمول الذي ضرب بجدرانه ؟ و ما هذا اليأس الذي قبض على القلوب فلا تعي ولا تفيق ؟ هذا أيها المسلمون عصر التكوين فكونوا أنفسكم و بذلك تتكون أمتكم .

إن هذه الفريضة تحتاج إلى منكم نفوسا مؤمنة و قلوبا سليمة ، فاعملوا على تقوية إيمانكم و سلامة صدوركم ، و تحتاج منكم تضحية بالمال و الجهود فاستعدوا لذلك فإن ما عندكم ينفد و ما عند الله باق ، و إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم جنة عرضها السموات و الأرض .

من أين نبدأ؟

إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ: تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو الفئة التي تدعو إليه على الأقل، إلى "قوة نفسية عظيمة" تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه، والخديعة بغيره. على هذه الأركان الأولية التي هي من خصوص النفوس وحدها، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة، تبنى المبادئ وتتربى الأمم الناهضة، وتتكون الشعوب الفتية، وتتجدد الحياة فيمن حرموا الحياة زمناً طويلاً.

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى خير، ولا يحقق أملاً، وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام: (إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) (يونس:٣٦) .

هذا هو قانون الله تبارك وتعالى وسنته في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً:

 (إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:١١) .

و هو أيضا القانون الذي عبر عنه النبي في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود :

(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل: ومن قِلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ اللّه من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ اللّه في قلوبكم الوهن ، فقال قائل: يا رسول اللّه وما الوهن ؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت)

أولست تراه قد بين أن سبب ضعف الأمم و ذلة الشعوب وهن نفوسها و ضعف قلوبها و خلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة و صفات الرجولة الصحيحة ، و إن كثر عددها و زادت خيراتها و ثمراتها

و إن الأمة إذا رتعت في النعيم و أنست بالترف و غرقت في أعراض المادة و افتتنت بزهرة الحياة الدنيا ، و نسيت احتمال الشدائد و مقارعة الخطوب و المجاهدة في سبيل الحق ، فقل على عزتها و آمالها العفاء .

بين القوتين

يظن كثير من الناس أن الشرق تعوزه القوة المادية من المال و العتاد و آلات الحرب و الكفاح لينهض و يسابق الأمم التي سلبت حقه و هضمت أهله ، ذلك صحيح و مهم ، و لكن أهم منه و ألزم : القوة الروحية من الخلق الفاضل و النفس النبيلة و الإيمان و معرفتها و الإرادة الماضية ، و التضحية في سبيل الواجب و الوفاء الذي تنبني عليه الثقة و الوحدة ، و عنهما تكون القوة .

لو آمن الشرق بحقه و غير من نفسه و اعتنى بقوة الروح و عني بتقويم الأخلاق ، لأتته وسائل القوة المادية من كل جانب و عند صحائف التاريخ الخبر اليقين

يعتقد الإخوان المسلمون هذا تمام الاعتقاد ، و هم لهذا دائبون في تطهير أرواحهم و تقوية نفوسهم و تقوية أخلاقهم ، و هم لهذا يجاهدون بدعوتهم و يريدون الناس على مبادئهم و يطالبون الأمة بإصلاح النفوس و تقويم الأخلاق .

و هم لم يبتدعوا ذلك ابتداعا شأنهم في كل ما يقولون و لكنهم يستمدونه من القاموس الأعظم و البحر الخضم و الدستور المحكم و المرجع الأعلى ، ذلك هو كتاب الله تبارك و تعالى ، و قد سمعت من قبل تلك المادة الخالدة من ذلكم القانون :

 (إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:١١) .

و لقد كشف القرآن عن هذا المعنى في كثير من آياته ، بل إنه ضرب مثلا تطبيقيا خالدا واضحا كل الوضوح صادقا كل الصدق في قصة بني إسرائيل ، تلك القصة الرائعة التي ترسم لكل أمة يائسة طريق التكوين .

المنهاج واضح

يعتقد الإخوان المسلمون أن الله تبارك و تعالى حين أنزل القرآن و أمر عباده أن يتبعوا محمدا و رضي لهم الإسلام دينا ، و وضع في هذا الدين القويم كل الأصول اللازمة لحياة الأمم و نهضتها و إسعادها ، و ذلك مصداق قول الله تبارك و تعالى :

 (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (الأعراف:١٥٧).

و مصداق قول الرسول في الحديث الشريف ما معناه (والله ما تركت من شر إلا و نهيتكم عنه)

و أنت إذا أمعنت النظر في تعاليم الإسلام وجدته قد وضع أصح القواعد و أنسب النظم و أدق القوانين لحياة الفرد رجلا و امرأة ، و حياة الأسرة في تكوينها و انحلالها ، و حياة الأمم في نشوئها و قوتها و انحلالها ، و حلل الفكر التي وقف أمامها المصلحون .

فالعالمية و القومية و الاشتراكية و الرأسمالية و البلشفية و الحرب و توزيع الثروة ، و الصلة بين المنتج و المستهلك و ما يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى هذه البحوث التي تشغل بال ساسة الأمم و فلاسفة الاجتماع ، كل هذه نعتقد أن الإسلام خاض في لبها ، و وضع للعالم النظم التي تكفل له الانتفاع بما فيها من محاسن ، و تجنب ما تستتبعه من خطر و ويلات ، و ليس ذلك مقام تفصيل في هذا المقال ، فإنما نقول ما نعتقد و نبين للناس ما ندعوهم إليه ، ولنا بعد ذلك جولات نفصل فيها ما نقول .

لا بد من أن نتبع

وإذا كان الإخوان المسلمون يعتقدون ذلك فهم يطالبون الناس بان يعملوا على أن تكون قواعد الإسلام الأصول التي تبنى عليها نهضة الشرق الحديث في كل شان من شؤون الحياة ، ويعتقدون أن كل مظهر من مظاهر النهضة يتنافى مع قواعد الإسلام و يصطدم بأحكام القرآن فهو تجربة فاسدة فاشلة ، ستخرج منها الأمم بتضحيات كبيرة في غير فائدة ، فخير للأمم التي تريد النهوض أن تسلك إليه أخصر الطريق باتباعها أحكام الإسلام .

والإخوان المسلمون لا يختصون بهذه الدعوة قطرا دون قطر من الأقطار الإسلامية ، ولكنهم يرسلونها صيحة يرجون أن تصل إلى آذان القادة و الزعماء في كل قطر يدين أبناؤه بدين الإسلام ، و إنهم لينتهزون لذلك هذه الفرصة التي تتحد فيها الأقطار الإسلامية و تحاول بناء مستقبلها على دعائم ثابتة من أصول الرقي و التقدم و العمران .

احذروا الانحراف

و إن أكبر ما يخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية في تيار التقليد ، فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التي انتقضت على نفسها و أثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها ، إن لكل أمة من أمم الإسلام دستورا عاما فيجب أن تستمد مواد دستورها العام من أحكام القرآن الكريم ، و إن الأمم التي تقول في أول مادة من مواد دستورها : إن دينها الرسمي الإسلام ، يجب أن تضع بقية المواد على أساس هذه القاعدة ، و كل مادة لا يسيغها الإسلام و لا تجيزها أحكامه يجب أن تحذف من حتى لا يظهر التناقض في القانون الأساسي للدولة .

أصلحوا القانون

وإن لكل أمة قانونا يتحاكم إليه أبنائها ، و هذا القانون يجب أن يكون مستمدا من أحكام الشريعة الإسلامية مأخوذا عن القرآن الكريم متفقا مع أصول الفقه الإسلامي ، و إن الشريعة الإسلامية و فيما وضعه المشترعون المسلمون ما يسد الثغرة و يفي بالحاجة و ينقع الغلة ، و يؤدي إلى أفضل النتائج و أبرك الثمرات ، و إن في حدود الله لو نفذت لزاجرا يردع المجرم و إن اعتاد الإجرام ، و يكف العادي و إن تأصل في نفسه العدوان و يريح الحكومات من عناء التجارب الفاشلة ، و التجربة تثبت ذلك و تؤيده ، و أصول التشريع الحديث تنادي به و تدعمه ، و الله تبارك و تعالى يفرضه و يوجبه :

 (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة:٤٤) .

أصلحوا مظهر الاجتماع

وإن في كل أمة مظاهر من الحياة الاجتماعية تشرف عليها الحكومات و ينظمها القانون و تحميها السلطات ، فعلى كل أمة شرقية إسلامية أن تعمل على أن تكون كل هذه المظاهر مما يتفق و آداب الدين و يساير و يساير تشريع الإسلام و أوامره ، إن البغاء الرسمي لطخة عار في جبين كل أمة تقدر هذه الفضيلة ، فما بالك بالأمم الإسلامية التي التي يفرض عليها دينها محاربة البغاء و الضرب على يد الزناة بشدة :

 (وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (النور:٢).

إن حانات الخمر في أظهر شوارع المدن و أبرز أحيائها ، و تلك اللوحات الطويلة العريضة عن المشروبات الروحية ، و هذه الإعلانات الظاهرة الواضحة عن أم الخبائث مظاهر يأباها الدين ، و يجرمها القرآن الكريم أشد التحريم .

حاربوا الإباحية

و إن هذه الإباحية المغرية و المتعة الفاتنة و اللهو العابث في الشوارع و المجامع و المصايف والمرابع يناقض ما أوصى به الإسلام باتباعه من عفة و شهامة و إباء و انصراف إلى الجد و ابتعاد عن الإسفاف (إن الله تعالى يحب معالي الأمور و يكره سفاسفها) .

فكل هذه المظاهر و أشباهها ، على الأمم الإسلامية أن تبذل في محاربتها و مناهضتها كل ما في وسع سلطانها و قوانينها من طاقة و مجهود لا تني عن ذلك و لا تتواكل .

نظموا التعليم

وإن لكل أمة و شعب إسلامي سياسة في التعليم و تخريج الناشئة و بناء رجال المستقبل ، الذين تتوقف عليهم حياة الأمة الجديدة ، فيجب أن تبنى هذه السياسة على أصول حكيمة تضمن للناشئين مناعة دينية و حصانة خلقية ، و معرفة بأحكام دينهم ، و اعتدادا بمجده الغابر وحضارته الواسعة .

هذا قليل من كثير من الأصول التي يريد الإخوان المسلمون أن ترعاها الأمم الإسلامية في بناء النهضة الحديثة ، و هم يوجهون دعوتهم هذه إلى كل المسلمين شعوبا و حكومات ، و وسيلتهم في الوصول إلى تحقيق هذه الغايات الإسلامية السامية وسيلة واحدة : أن يبنوا ما فيها من مزية و أحكام ، حتى إذا ذكر الناس ذلك و اقتنعوا بفائدته أنتج ذلك عملهم له و نزولهم على حكمه :

 (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:١٠٨) .

انتفعوا بإخاء إخوانكم

ينادي الإسلام أبناءه و متبعيه فيقول لهم :

 (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) (آل عمران:١٠٣).

و يقول القرآن الكريم في آية أخرى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات:١٠)

و في آية أخرى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (التوبة:٧١) .

و يقول النبي الكريم صلى الله عليه و سلم : (و كونوا عباد الله إخوانا) و كذلك فهم المسلمون الأولون – رضوان الله عليهم – من الإسلام هذا المعنى الأخوي و أملت عليهم عقيدتهم في دين الله أخلد عواطف الحب و التآلف ، و أنبل مظاهر الأخوة و التعارف ، فكانوا رجلا واحدا و قلبا واحدا و يدا واحدة ، حتى امتن الله بذلك في كتابه فقال تبارك و تعالى :

 (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) (لأنفال:٦٣) .

تطبيق

وإن ذلك المهاجر الذي كان يترك أهله ، و يفارق أرضه في مكة و يفر بدينه ، كان يجد أمامه أبناء الإسلام من فتيان يثرب ينتظرون و كلهم شوق إليه و حب له و سرور بمقدمه ، و ما كان لهم سابق معرفة و لا قديم صلة ، و ما ربطهم به وشيجة من صهر أو عمومة ، و ما دفعتهم إليه غاية أو منفعة ، و إنما هي عقيدة الإسلام جعلتهم يحنون إليه و يتصلون به ، و يعدونه جزءا من أنفسهم و شقيقا لأرواحهم ، و ما هو إلا أن يصل المسجد حتى يلتف حوله الغر الميامين من الأوس و الخزرج ، كلهم يدعوه إلى بيته و يؤثره على نفسه و يفديه بروحه وعياله ، ويتشبث بمطلبه هذا حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، حتى روى الإمام البخاري ما معناه : (ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة) .

وحتى خلد القرآن للأنصار ذلك الفضل أبد الدهر ، فما زال يبدو غرة مشرقة في جبين السنين في قول الله تبارك و تعالى :

 (وَالَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:٩) .

و على هذا درج أبناء الإسلام و خص الرعيل الأول ممن وجدت بين نفوسهم الأخوة الإيمانية ، لا فرق بين مهاجرهم و أنصارهم ، و لا بين مكيّهم و يمنيّهم ، حتى أثنى الرسول على الأشاعرة من أهل اليمن بقوله صلى الله عليه و سلم ما معناه

(نعم القوم الأشعريون إذا جهدوا في سفر أو حضر جمعوا ما عندهم فوضعوه في مزادتهم ثم قسموه بينهم بالسوية)

و أنت إذا قرأت القرآن الكريم ، و أحاديث النبي العظيم صلى الله عليه و سلم ، و طالعت سير الغر الميامين من أبناء هذا الدين ، رأيت من ذلك ما يقر عينك و يملأ سمعك و قلبك .

أخوة تعلن الإنسانية

و لقد أثمرت هذه العقيدة ثمرتين لابد لنا من أن نجنيهما و نتحدث إليك عما فيهما من حلاوة لذة و خير و فائدة .

فأما الأولى منها : فقد أنتجت هذه العقيدة أن الاستعمار الإسلامي لم يشبهه أي استعمار في التاريخ أبدا ، لا في غايته و لا في مسالكه و إدارته و لا في نتائجه و فائدته ، فإن المستعمر المسلم إنما كان يفتح الأرض حين يفتحها ليعلي فيها كلمة الحق ، و ينير أفقها بسنة القرآن الكريم ، فإذا أشرقت على نفوس أهلها شمس الهداية المحمدية فقد زالت الفوارق و محيت المظالم ، و شملها العدل و الإنصاف و الحب و الإخاء ، و لم يكن هناك فاتح غالب و خصم مغلوب ، و لكن إخوان متحابون متآلفون ، و من هنا تذوب فكرة القومية ، و تنجاب كما ينجاب الثلج سقطت عليه أشعه الشمس قوية مشرقة أمام فكرة الأخوة الإسلامية التي يبثها القرآن في نفوس من يتبعونه جميعا .

إن ذلك الفاتح المسلم قبل أن يغزوا من غزا و يغلب من غلب ، قد باع أهله ، و تجرد من عصبيته و قوميته في سبيل الله ، فهو لا يغزو لعصبية و لا يغلب لقومية و لا ينتصر لجنسية ، و لكنه حين يعمل لله و لله وحده لا شريك له ، و إن أروع ما أثر من الإخلاص في الغاية ، و تجريد النفس من الهوى ما جاء في الحديث الشريف ما معناه أن رجلا جاء إلى النبي فقال له يا رسول الله ، إني أحب أن أجاهد في سبيل الله ، و أحب أن يرى موقفي فسكت النبي و لم يجبه ، فنزلت الآية الكريمة :

 (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف:١١٠).

أرأيت كيف اعتبر الإسلام تطلع هذا الشخص إلى الثناء و المدح و هما من طبائع النفوس شركا خفيا يجب أن يتنزه عنه و يسمو بشرف الغاية النبيلة عنه ؟ و هل هناك أخلص من أن

ينسى الإنسان نفسه في سبيل غايته ؟ و هل تظن أن رجلا يشترط عليه دينه أن يتجرد من نفسه و يكبت عواطفها و ميولها و أهواءها حتى يكون جهاده خالصا لله وحده ، يفكر بعد هذا في أن يجاهد لعصبية أو يغزو لجنس أو قومية ؟ .. اللهم لا .

إن ذلك المغلوب الذي شاء له القدر أن يسعد بالإسلام و يهتدي به ، ما ترك بلده و أرضه لأجنبي عنه يتحكم فيها و يسخره تسخير العبد الذليل ، و يستأثر دونه بخيراتها ، و لكنه ترك ما ترك لأنه يخلطه بنفسه و يمزجه بروحه و يناديه بإخلاص : لك ما لنا و عليك ما علينا ، وكتاب الله تبارك و تعالى يفصل بيننا ، فكلاهما فني في غايته و ضحّى في سبيل مبدئه ، و ترك ما ترك ليعم الإنسانية نور الله ، و تسطع عليها شمس القرآن الكريم ، و في ذلك تمام إسعادها و كمال رقيها لو كانوا يعلمون .

أفق الوطن الإسلامي

أما الثمرة الثانية : فإن الأخوة الإسلامية جعلت كل مسلم يعتقد أن كل شبر من الأرض ، فيه أخ يدين بدين القرآن الكريم ، قطعة من الأرض الإسلامية العامة التي يفرض الإسلام على كل أبنائه أن يعملوا لحمايتها وإسعادها فكان من ذلك أن أتسع أفق الوطن الإسلامي وسما عن حدود الوطنية الجغرافية والوطنية الدموية إلى وطنية المبادئ السامية والعقائد الخالصة الصحيحة ، والحقائق التي جعلها الله للعالم هدى ونوراً ، والإسلام حين يشعر أبناءه بهذا المعنى ويقرره في نفوسهم يفرض عليهم فريضة لازمة لحماية أرض الإسلام من عدوان المعتدين ، وتخليصها من غصب الغاصبين ، وتحصينها من مطامع المتعدين .

طريق طويلة

أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتاليات في بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء عن غايتهم ، و أبانت لهم و لو إلى حد ما عن مناهجهم في السير إلى هذه الغاية ، و قد تحدثت من قبل إلى إخواننا الغيورين على الإسلام و مجده حديثا طويلا هو أشبه بهذه الكلمات التي رآها القراء تحت عنوان : (إلى أي شيء ندعو الناس)

و لقد أصغى إلى من حدثتهم إصغاء مشكورا ، و كنا نتفهم القول تباعا أولا فأول ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تماما بشرف الغاية و نجاح الوسيلة ، و كم كانت دهشتي عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، و أن التيارات الجارفة الهدامة في البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب و القنوط يستولي على

النفوس ، و حتى لا يجد القراء الكرام هذا الشعور الذي وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هذه الكلمات مفعمة بالأمل ، فياضة باليقين في النجاح إن شاء الله ، و لله الأمر من قبل و من بعد ، و سأحصر الموضوع في نظرتين إيجابيتين :

نظرة اجتماعية

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، و أحلام اليوم هي حقائق الغد ، و تلك نظرة يؤيدها الواقع و يعززها الدليل و البرهان ، بل هي محور تقدم الإنسانية و تدرجها مدارج الكمال ، فمن ذا الذي كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات و المخترعات قبل حدوثها ببضع سنين ، بل إن أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتها الواقع و أيدها البرهان ، و المثل على ذلك كثيرة ، و هي من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها .

نظرة تاريخية

وإن نهضات الأمم جميعاً، إنما بدأت على حال من الضعف يخيَّل للناظر إليها، أن وصولها إلى ما تبتغي ضرب من المحال.

ومع هذا الخيال، فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة، القليلة الوسائل، إلى ذروة ما يرجوه القائمون بها، من توفيق ونجاح، ومن ذا الذي كان يصدّق أن الجزيرة العربية وهي تلك الصحراء الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحي والسياسي على أعظم دول العالم؟ ومن ذا الذي كان يظن أن أبا بكر صاحب القلب الرقيق الليِّن، وقد انتقض الناس عليه، وحار أنصاره في أمرهم، يستطيع أن يخرج في يوم واحد أحد عشر جيشاً، تقمع العصاة وتقوِّم المعوج ، وتؤدب الطاغي وتنتقم من المرتدين، وتستخلص حق الله في الزكاة من المانعين؟. ومن ذا الذي كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بني علي و العباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوي الواسع الأكناف ما بين عشية وضحاها ، و هي ما كانت في يوم من الأيام إلا عرضة للقتل و التشريد و النفي و التهديد ؟. ومن ذا الذي كان يظن أن صلاح الدين الأيوبي يقف الأعوام الطوال ، فيردّ ملوك أوروبا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكاً من ملوكهم الأكابر؟

ذلك في التاريخ القديم، وفي التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود ، وقد نفيت أسرته وشرِّد أهله وسُلب ملكه، يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلاً، ثم يكون بعد ذلك أملاً من آمال العالم الإسلامي في إعادة مجده وإحياء

وحدته؟ ومن كان يصدق أن ذلك العامل الألماني(هتلر) يصل إلى ما وصل إليه من قوة النفوذ و نجاح الغاية ؟

هل هناك طريق أخرى؟

و ثم نظرتان سلبيتان تحدثان النتيجة بعينها و توجهان قلب الغيور إلى العمل توجيها صحيحا . أولاهما : أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها في بناء النهضات بناء صحيحا و قد أثبتت التجربة صحة هذه النظرية .

الواجب أولا

و ثانيتهما : أن العامل يعمل لأداء الواجب أولا ، ثم للأجر الأخروي ثانيا ، ثم للإفادة ثالثا ، و هو إن عمل فقد أدى الواجب ، و فاز بثواب الله ما في ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ، و بقيت الإفادة و أمرها إلى الله ، فقد تأتي فرصة لم تكن في حسابه تجعل عمله يأتي بأبرك الثمرات ، على حين إنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، و ضاع منه أجر الجهاد و حرم الإفادة قطعا ، فأي الفريقين خير مقاما و أحسن نديا ؟ و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في صراحة و وضوح في الآية الكريمة :

 (وَ إِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) (الأعراف:١٦٤-١٦٥).

قصة أمة تتكون

ضعف

نحن الآن أمام جبار متكبر يستعبد عباد الله و يستضعفهم و يتخذهم خدما و حشما و عبيدا و خولا ، و بين شعب من الشعوب الكريمة المجيدة استعبده ذلك الطاغية الجبار ، ثم أراد الله تبارك تعالى أن يعيد لهذا الشعب المجيد حريته المسلوبة و كرامته المغصوبة و مجده الضائع و عزه البائد ، فكان أول شعاع من فجر حرية هذا الشعب إشراق شمس زعيمه العظيم (موسى) على الوجود طفلا رضيعا :

 (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ) (القصص:٣-٥).

زعامة

و نحن بعد هذا أمام هذا الزعيم و قد بلغ أشده و استوى ، و تولته العناية الإلهيـــة ، بعـــد أن أنفت نفسه الظلم و عافت الضيم ، ففر بنفسه و هرب بحريته ، حيث اصـــطنعه الله لنفـــسه و حمله عبء رسالته ، و أسند إليه خلاص شعبه ، فآب مملوءا بالإيمان مؤيدا باليقين ، يواجـــه ذلك الجبار فيطلب إليه أن يعيد إلى شعبه حريته و يترك له كرامته و يؤمن به و يتبعه . و ما أروع ذلك التهكم المر اللاذع حين يحكي القرآن الكريم قول الرسول العظيم

 (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء:٢٢).

أيها الجبار المتحكم في عباد الله لا عبادك ، هل من النعمة التي تذكرنا بها و الجميـــل الـــذي تسديه إلي أن تستعبد شعبي و تحقر أمتي و تمتهن قومي ؟ إنها صيحة الحق دوت مـــن فـــم النبي الكريم فزلزلت عرش الجبار و هزت ملكه :

 (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَـــالَ أَلَـــمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًـــا وَجَعَلَنِـــي مِـــنَ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء:١٦-٢١).

صراع

و نحن الآن نشهد غضبة القوة على الحق كيف تثور عليه و تنتقم منه و تعذب أهله و تقهـــر مناصريه ، ثم كيف يصبر أهل الحق على كل ذلك ، و كيف يعللهم رؤساؤهم بالآمال الحلوة و الأماني العزبة حتى لا يجد الخور إلى نفوسهم سبيلا :

 (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـــي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ، قَالَ مُوسَى لِقَوْمِـــهِ اسْـــتَعِينُوا بِـــاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الأعراف:١٢٧-١٢٨) .

إيمان

و ما أروع أن نشهد ذلك النموذج الخالد من الثبات و الصبر ، و الاستمساك بعروة الحق ، و الاستهانة بكل شيء حتى الحياة في سبيل الإيمان و العقيدة من أتباع هذا الزعيم الذين آمنـــوا بدعوته ، و قد تحدوا هذا الجبار في استهانة و استماتة :

 (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طه:٧٢-٧٣) .

انتصار

فإذا رأينا كل ذلك رأينا عاقبته في القسم الخامس و ما أدراك ما هي ؟ فوز و فلاح و انتصار و نجاح و بشرى تزف إلى المهضومين ، و أمل يتحقق للحالمين ، و صيحة الحق المبين تدوي في آفاق الأرض :

 (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ) (طه:٨٠) .

هل نحن قوم عمليون؟

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قد أجبنا في الرسالة السابقة (إلى أي شئ ندعو الناس)عن سؤال يتردد كثيرا علي أفواه كثير من الناس ، فهم كانوا يسألون دائما كلما دعاهم داع إلى تشجيع (جماعة الإخوان المسلمون) والي أي شيء تدعو جماعة الإخوان المسلمون؟ وأحسبني أوضحت مبادئ هذه الدعوة بما يجعل الجواب علي هذا السؤال واضحا لا لبس فيه ولا غموض ، وأظنني أجملت لهؤلاء السائلين مبادئ هذه الدعوة في الكلمة الأولى ثم فصلتها في الكلمات التي تلتها فلم يبق عذر للذي يريد أن يتعرف حقيقة دعوة الإخوان إجمالا وتفصيلا .

سؤال مهم.. وأصناف سائليه

وبقي سؤال آخر يتردد كثيرا علي أفواه الناس كذلك كلما دعاهم داع إلى تشجيع هذه الجماعة ، التي تدأب علي العمل ليل نهار لا تبتغي من أحد جزاء ولا شكورا ، ولا تعمل إلا لله وحده ولا تعتمد في خطواتها إلا علي تأييده ونصره وما النصر إلا من عند الله ، وشعار كل عامل من العاملين : إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

هذا السؤال الآخر أن يقول لك ذلك الذي تدعوه في استهانة وإعراض غالبا :

وهل هذه الجماعة جماعة عملية ؟وهل أعضاؤها قوم عمليون ؟

وهذا السائل أحد أصناف من الناس ...

إما شخص متهكم مستهتر لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ولا يقصد من إلقاء هذا السؤال إلا أن يهزأ بالجماعات والدعوات والمبادئ والمصلحين ، لأنه لا يدين بغير مصلحته الشخصية ، ولا يهمه من أمر الناس إلا الناحية التي يستغلهم منها لفائدتهم فقط ..

أو هو شخص غافل عن نفسه وعن الناس جميعا فلا غاية ولا وسيلة ولا فكر ولا عقيدة ..

وإما شخص مغرم بتشقيق الكلام وتنميق الجمل والعبارات وإرسال الألفاظ فخمة ضخمة ليقول السامعون إنه عالم ، وليظن الناس أنه علي شئ وليس هو علي شئ وليلقي في روعك أنه يود العمل ولا يقعده عن مزاولته إلا أنه لا يجد الطريق العملي إليه ، وهو يعلم كذب نفسه في هذه الدعوى وإنما يتخذها ستارا يغطي به قصوره وخوره وأنانيته وأثرته ..

وإما شخص يحاول تعجيز من يدعوه ليتخذ من عجزه عن الإجابة عذراً للقعود بالعلة للخمول والمكسلة ، وسبباً للانصراف عن العمل للمجموع .

وآية ذلك عند هؤلاء جميعاً أنك إذا فاجأتهم بالطريق العمليّ ، وأوضحت لهم مناهج العمل المثمر ، وأخذت بأبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأيديهم إلى الطريق المستقيم لوّوا رؤوسهم وحاروا في أمرهم وأسقط في أيديهم ، وظهر الاضطراب والتردد في ألفاظهم وحركاتهم وسكناتهم وأخذوا ينتحلون المعاذير ويرجئونك إلى وقت الفراغ ويتخلصون منك بمختلف الوسائل ، ذلك بعد آن يكونوا أمضوك اعتراضاً وأجهدوك نقاشاً ومحاوره ، ورأيتهم بعد ذلك يصدون وهم مستكبرون .

وإنما مثلهم في ذلك كالذي حدثوا أن رجلاً أعد سيفا قاطعاً ورمحاً نافذاً وعدةً وسلاحاً ، وأخذ كل ليلة ينظر إليها ويتحرق أسفاً لأنه لا يرى خصما أمامه يُظهر في نزاله براعته ويؤيد بحربه شجاعته ، فأرادت امرأة أن تختبر صدق قوله ، فأيقظته ذات ليلة مع السحر ونادته بلهجة المستغيث : قم أبا فلان فقد طرقتنا الخيل ، فاستيقظ فزعا تعلوه صفرة الجبن وتهز أوصاله رعدة الخوف ، وأخذ يردد في ذهول واضطراب : الخيل.. الخيل.. لا يزيد على ذلك ولا يحاول أن يدفع عن نفسه ، وأصبح الصبح وقد ذهب عقله خوفاً وإشفاقا ، وطار لبه وجلا ورعبا ، وما نازل خصما ولا رأى عدوا ، وذلك كما قال القائل :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

بل كما قال الله تبارك وتعالى :

 (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً ، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً) (الأحزاب:١٨-١٩) .

وليس لنا مع هذا الألوان من الناس قول وليس لهم عندنا جواب إلا أن نقول لهم : سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين . وما لهؤلاء كتبنا ولا إياهم خطبنا . فلقد أملنا فيهم الخير طويلا ، انخدعنا بمعسول دعاويهم وعذب ألفاظهم حينا .. ثم تكشف أمرهم عن وقت أضيع ، ومجهود عقيم ،

وتعويق عن الطريق ، ورأينا منهم ضروبا وألوانا وأصنافا وأشكالا جعلت النفس لا تــركن إليهم ولا تعتمد في شأن من الشؤون مهما كان صغيرا عليهم .

وهناك صنف آخر من الناس قليل بعدده كثير بجهده ، نادر ولكنه مبارك ميمون ، يسألك هذا السؤال إذا دعوته المشاركة والتشجيع بغيرة وإخلاص، إنه غيور تملأ الغيرة قلبه ، عامل يود لو علم طريق العمل المثمر ليندفع فيها ، مجاهدا ولكنه لا يرى الميدان الذي تظهر فيه بطولته ، خبر الناس ودرس الهيئات وتقلب في الجماعات فلم يرى ما يملأ نفسه ويشبع نهمته ويسكن فؤاده ويقر ثأر شعوره ويرضي يقظة ضميره ، ولو رآه لكان أول الصف ولعد في الميــدان بألف ، ولكان في حلبة العاملين سابقا مجليا سائل الغرة ممسوح الجبين .

هذا الصنف هو الحلقة المفقودة والضالة المنشودة ، وأنا على ثقة أنه إن وقع في أذنــه هــذا النداء وتلقى فؤاده هذا النجاء لن يكون إلا أحد الرجلين : إما عامل مع المجدين ، وإما عاطف من المحبين ، ولن يكون غير ذلك أبدا . فهو إن لم يكن للفكرة فلن يكــون عليهــا . ولهــذا الصنف نكتب .. وإياه نخاطب ومعه نتفاهم ..وان الله وحده هو الذي يختار جنــده وينتخــب صفوة العاملين له : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُــوَ أَعْلَــمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص:٥٦) ، ولعلنا نوفق إلى ما قصدنا إليه .. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

للغيورين من أبناء الإسلام

لهذا الصنف :الكريم المعادن ، النفيس الجواهر ،العالي الهمة ، النبيل النفس ، الذي يود العمل ويتمناه ، ويقعد بهم عن تحقيق أمنيته قول القائل :

وزهدي في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحبا بعد صاحب

فلم ترني الأيام خِــلا تســرني مبــاديه إلا ســاءنى في العواقــب

نقول: أنت الآن أمام دعوة جديدة وقوم ناشئين يدعونك إلى العمل معهــم والانــضمام إلــيهم والسعي بجوارهم إلى الغاية التي هي أمل كل مسلم ورجاء كل مؤمن ، ومن حقك أن تــسأل عن مدي وسائلهم العملية ، ومن واجبك أن تتحرى وتتفقه فيما يدعونك إليه. ولقد أعجبني من صديق دعوته إلى جماعتنا أنه كان يراجعني في كل كلمه ويقف أمام كل عبارة ويناقش كــل وسيله حتى إذا اقتنعت نفسه قال كلمته فما زالت مرعية الجانب محققه المعني واضحة الأثــر ، وما زال هو العامل المجد إلى الآن وأرجو أن يظل كذلك بحول الله تعالى . ولكنا مع هــذا نسوق لمثل هذا الأخ الكريم هذه الملاحظات : -

ألا يرى الأخ معنا أن الأجدر بنا بدل أن نسأل هذا السؤال أن ندخل ضمن الجماعة ونعمل مع العاملين فيها ونلقى بدلونا بين الدلاء ، فان رأينا خيراً فذلك ، وان كانت الأخرى فطريق الانفصال واضحة ، ولا سيما إذا كان الباب على مصراعيه لمن يدخل أو يخرج وكانت أعمال الجماعة جلية على المكشوف كما يقولون لا خفاء بها ولا سر فيها ؟ ولقد حدثوا أن النحويين اختلفوا فيما بينهم على عدد أبيات ألفية ابن مالك ، فكان هذا الخلاف مثار جدل عنف لم يوصلهم إلى شيء ، حتى تدخل أحد عقلائهم فأحضر نسخة منها وقال : ها هي ذه عدوها واتفقوا ...فكان في ذلك حسم الخلاف .

هذه جماعة الإخوان يا عزيزي في كل مكان تنادى الناس وتفتح لهم قلبها وبابها وناديها ، فهلم فان رأيت ما تحب فعلى بركة الله وان لم تر ذلك فقل كما قال بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد

أولاً يرى الأخ معنا أن الجماعات هي الأفراد منضمة ، فإذا كان كل فرد يسأل هذا السؤال فأين الجماعة إذن ؟ هذه خدعة عقلية يقع فيها كثير من الناس ، فأنت إذا شئت أن تعرف الكرسي قلت هو جسم يتركب من مقعد ومسند وأربع أرجل ، ولكن ألست ترى أن هذه خديعة وان ذلك ليس بصحيح ، فهل الجسم غير هذه الثلاثة ؟ وإذا جردت الكرسي من أرجله ومقعده ومسنده فهل يبقى هناك جسم أو أثر يصح أن تطلق عليه صفة الوجود فضلا عن الصفات الأخرى؟

كذلك يخدع الناس أنفسهم في قضية الجماعات والأفراد ، فهم يظنون أن الجماعات شيء والأفراد شيء وما الجماعات في الحقيقة إلا أفراد ، وما الأفراد إلا حقائق الجماعات ولبنات بنائها ، فإذا تنافرت هذه اللبنات وأخذ كل فرد يسأل عن الجماعة... فأين الجماعة إذن؟ ومن السائل ومن المسئول؟ وإنما أوقعنا في هذه الورطة ما عودناه من خلق التواكل الذي جعلنا نترك العبء كله لفرد واحد أو يدفعه كل منا على أخيه ففلا يزال مهملا لا يستقر على حال ولا ينهض به أحد ، وها أنا ذا أصارح كل الغيورين من أبناء الإسلام بأن كل جماعة إسلامية في هذا العصر محتاجة أشد الحاجة إلى الفرد العامل المفكر .. إلى العنصر الجريء المنتج . فحرام على ككل منت آنس من نفسه شيئا من هذا أن يتأخر عن النفير دقيقة واحدة .

أولا يرى ــ أيده الله وأيد به ــ أن عليه أن يدخل إلى الجماعة التي تدعوه فان وجدها عملية كما يحب قرت عينه وفرحت نفسه ، وان لم يجدها كذلك حملها بوضوح شخصيته وقوة تأثيره على ما يجب من وسائل العمل ، فان لم تستقم له كان قد أعذر إلى ربه ونفسه ولعلهم يتقون ؟ و لاسيما إذا كان الذين يوجهون إليه هذه الدعوة قوم يعلمون أن فوق كل ذي علم عليم ، وأن لكل ذي رأى حقا في إبداء رأيه ، وإن المصطفى ﷺ وهو أصح الناس رأياً

وأنضجهم فكراً وأكبرهم عقلا –أخذ برأي الحباب في بدر وبرأي سلمان في الخندق ، وهم يفرحون بكل من يأخذ بفكرتهم إلى وسائل العمل الصحيح .

أولا يرى الأخ كذلك أنه إن كان قد جرب مرة أو مرتين أو فوق ذلك فان ذلك لا ييئسه ومن واجبه أن يعاود الكره مرات حتى يظفر بأمنيته ويصادف بغيته ، فانه إن قنط فاته بذلك خير كثير ؟ كالذي حدثوا أن صيادا ظفر بسمكه كبيرة ثم رأى في قاع الماء صدفة ظنها لؤلؤه فترك السمكة وأخذ الصدفة ، فلما رآها ندم على ما فرط منه ثم وقع له حوت صغير وعرضت لؤلؤة ظنها صدفة فأعرض عنها وقنع بحوته ففاته خير كثير . أو كالذي حدثوا أن بطة في غدير رأت في الماء ظلا ظنته سمكه فأخذت تهوى بمنقارها تلتقطه حتى أتعبها ذلك فتركته غاضبة ، ثم عرضت لها سمكة فظنتها ظلا وتركتها ففاتتها الفرصة السانحة وخسرت الأمنية المطلوبة .

هذه ملاحظات نتقدم بها إلى الذين يريدون أن يعملوا للإسلام من أبنائه الغيورين ، وهي جديرة بالنظر فيما نعتقد . وندعوهم بدعوة الإخوان المسلمين ، فعليهم أن يجربوا ولا يتواكلوا ، ويندمجوا فإن وجدوا صالحا شجعوه ، وإن وجدوا معوجا أقاموه ، ولاتكن تجربتهم حائلا بينهم وبين التقدم ، ونأمل أن يروا من الإخوان ما تقر به أعينهم أن شاء الله تعالى ، وإنا موجزون بعض ذلك في الكلمات التالية.

مؤسسات ومشاريع

يعتقد كثير من إخواننا أن الجماعة العملية هي التي تقوم بعمل المشروعات العامة النافعة وتترك في مقرها أثراً خالداً من المؤسسات المفيدة . وسنجاريهم في هذا المقال ، ونزن "جماعة الإخوان المسلمين " بهذا الميزان ، ولنا في الكلمات التالية إن شاء الله تعالى ميزان آخر ــ نزن به جماعتنا ونقدر به الجهود العملية ــ قد يكون في باب نهضات الأمم أصح تقديراً وأدق تعبيراً من ميزان اليوم ، وكلاً وعد الله الحسنى .

انتشرت فكرة الإخوان المسلمين فيما يزيد علي خمسين بلداً من بلدان القطر المصري وقامت في كل بلد من هذه البلدان تقريباً بمشروع نافع أو مؤسسة مفيدة ، فأنت تراها في الإسماعيلية قد أسست مسجد الإخوان المسلمين ونادي الإخوان المسلمين وأنشأت معهد حراء الإسلامي لتعليم البنين ومدرسة أم المؤمنين ..

وفي شبراخيت قد أسست كذلك مسجد الإخوان ونادي الإخوان ومعهد حراء ، وأقامت بجوار هذه العمارة الفخمة داراً للصناعة يتعلم فيها طلبه المعهد الذين لا يستطيعون إتمام التعليم وتريد الجمعية أن تهيئ لهم سبيل الحياة العملية بتخريجهم صناعاً مثقفين وعمالاً مهذبين ..

وفي محمودية البحيرة قامت بمثل ذلك ، فأنشأت منسجاً للنسيج والسجاد إلى جوار معهد تحفيظ القرآن بدار نادي الإخوان المسلمين الرحيب .. وفي المنزلة دقهلية معهد لتحفيظ القرآن ظهرت ثمرته رغم قصر المدة ، وها هو يقدم لنا حفاظاً متقنين في هذه الفترة الوجيزة التي أنشئ فيها ..وقل مثل ذلك أو بعضه ــ ولا لزوم للتكرار ــ في كل شعبة من شعب الإخوان المسلمين المنتشرة في أنحاء القطر المصري من إدفو إلى الإسكندرية ..

وفي كثير من جمعيات الإخوان المسلمين تجد لجاناً تطوعت للمصالحات بين الأفراد والأسر المتخاصمة ، يجري الله علي يديها خيراً كثيراً ويحل بها من المشاكل ما شغل القضاء مدة طويلة ..

وفي كثير منها لجان للصدقات تتفقد البائسين والمعوزين في المواسم والأعياد وغيرها ، وتحاول بذلك القيام بواجب رعاية هؤلاء من جهة ورد غائلة ذئاب المبشّرين عنهم من ناحية أخري ..

وفي كثير منها لجان للوعظ والتذكير في المجتمعات التي لا يظن أن تكون مجامع وعظ كالمقاهي والأندية العامة وحفلات الأفراح والتعزية ونحوها ..

وفي كثير منها ولا سيما في النواحي القروية لجان تطوعت للإشراف علي المرافق العامة في القرية من ترميم المساجد وتنظيف الشوارع وإضاءة الطرقات والسعي في إيجاد المشافي المتنقلة ، وما إلى ذلك من كل ما يعود علي القرية بفائدة في دينها ودنياها ..

وفي كثير منها لجان لمحاربة العادات الفاسدة والجهالات المنتشرة في البيئات البعيدة عن مناهل العلم كالزار ونحوه ، وإلي جانبها لجان لإحياء السنن والفرائض التي نسيها الناس بالعمل لا بالقول : كجمع زكاة الحبوب في مخزن خاص وتوزيعها بمعرفة الجماعة علي المستحقين بدون محاباة ولا تحيز ، كما فعلت ذلك دائرة الإخوان ببرمبال القديمة مثلاً..

وفي القاهرة أنشئت "جريدة الإخوان المسلمين " الأسبوعية ، ولم تمض فترة وجيزة قليلة حتى وجدت إلى جانبها "مطبعة الإخوان المسلمين " وكل ذلك في وقت لم يتجاوز عاماً..

ولقد كان لجماعة الإخوان المسلمين في حركة التبشير الأخيرة بل في كل وقت عمل جليل في دفع خطر التبشير عن المستضعفين والفقراء وأبناء الأمة ، فبيوت الإخوان لإيوائهم ، ودور صناعاتهم مستعدة لتعليمهم ، ومدارسهم ترحب قبولهم ولجانهم تحذر الناس من شرور هؤلاء المضللين الذين يخادعون الناس عن عقائدهم ويستغلون الفقر والمرض في إضلالهم وإذلالهم .

تلك بعض آثار جماعة الإخوان المسلمين العملية ، ولا أذكر لك الدروس والمحاضرات والخطب والمقالات والوفود والرحلات والمجامع والزيارات ، فلعل هذه في عرف الناس وسائل قولية ، وقد قلنا حتى مللنا القول وتكلمنا حتى سئمنا الكلام ولم يبق إلا أن نعمل .

ولعلك تعجب حين تعلم أن جماعة الإخوان المسلمين التي قامت بهذه الأعمال العظيمة لم تأخذ إعانة حكومية مرة من المرات ، ولم تستعن بمال هيئة من الهيئات اللهم إلا خمسمائة جنيه تبرعت بها شركة قناة السويس للجماعة بمناسبة عمارة المسجد والمدرسة بالإسماعيلية .

وإن الناس ليتقولون كثيراً ، وليظنون وبعض الظن إثم ، ولينطقون بما ليس لهم به علم ، وما علينا في ذلك من بأس . وحسبنا أن يعلم الله أن ذلك بتوفيقه وأنها أموال الإخوان الخاصة أنفقت بإخلاص فأثمرت وبوركت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها وحسبنا أن نقول لهم في عبارة صريحة واضحة نتحدى بها كل إنسان وكل هيئة وكل شخص كائناً من كان : أن جماعة الإخوان المسلمين لم تستعن في مشروعاتها بغير أعضائها ، وهي بذلك جد فخورة تجد لذة التضحية ونشوة الفرح بالإنفاق في سبيل الله .

ولعلك تعجب كذلك إذا علمت أن الاشتراك المالي في جماعة الإخوان المسلمين اختياري لا إجباري ،وأن العضو الذي يتخلف عن دفع الاشتراك لا ينقض ذلك من حقوق أخوّته شيئاً ، ومع أن هذا نص صريح في القانون الأساسي للجماعة فان الإخوان ــ جزاهم الله خيرا ــ يبادرون إلى التضحية في سبيل الله إذا دعاهم إليها داعي الواجب ويأتون في ذلك بالعجب العاجب ،وأسمع أحدثك .

في بناء مسجد الإسماعيلية ، دعاهم رئيسهم إلى التبرع فقام أحد الأعضاء الصناع وتبرع بجنيه ونصف بعد ثلاثة أيام ، هو صانع فقير أنى له بهذا المبلغ ؟ أراد أن يقترض فأبت نفسه وخشي الممالطة .. حاول الحصول على هذا المبلغ من غير هذا الباب فلم يجد السبيل ميسرة..لم يبق أمامه إذا إلا أن يبيع دراجته التي يركبها من محل عمله ومن محل عمله إلى منزله وبينهما ستة كيلو مترات ! وفعلاً أنفذ الفكرة وأحضر المبلغ في نهاية الموعد تماماً فجمع بين الوفاء بموعده والقيام بتبرعه..

ولاحظ رئيس الإخوان أنه صار يتأخر عن درس العشاء ولا يدركه إلا بشق النفس ، وسأله عن ذلك فلم يجب ، فأجاب عنه صديق عرف سره وأخبر الرئيس أنه باع عجلته ليفي بتبرعه وأصبح يعود علي رجليه فيتأخر عن الدرس ، وأكبر الرئيس والإخوان هذه الهمة وحيوا فيه هذه الأريحية وأقروا تبرعه كما هو واكتتبوا له في دراجة جديدة خير من دراجته لتكون عنده ذكرى الإعجاب بهذا الوفاء .

بمثل هذه النفوس التي تمتُّ بصلة إلى نفوس السابقين الأولين من رجال الإسلام الغرّ الميامين نهضت فكرة الإخوان المسلمين ، ونجحت مؤسساتهم وتمت مشروعاتهم .

إنهم فقراء ولكنهم كرماء ، إنهم قليلو المال ولكنهم أسخياء النفوس ، فهم يجودون بالكثير من هذا القليل فيكون كثيراً وتباركه نعمة الله فيأتي بالخير العميم .ولعلي بهذه الناحية قد كشفت ناحية غمضت علي بعض الذين رأوا جهود الإخوان فلم يجدوا يجدوا لنجاحهم سراً إلا أن يتهموهم باستجداء الهيئات وخدمة المصالح والأغراض ، وهم والحمد لله من ذلك براء .

وأما بعد ، فهي صفحة من صفحات جهاد الإخوان المسلمين العملي نتقدم بها إلى الذين يريدون أن يزِنوا الجماعة بميزان المؤسسات والمشروعات . والإخوان دائبون في أن تصبح هذه الصفحة صفحات يتألف منها إن شاء الله تبارك وتعالى كتاب من أعمال الخير البريئة النزيهة الخالصة لوجه الله تبارك وتعالى . ولعلهم بذلك يفكرون في تشجيع هذه الجماعة الماضية قدما إلى غايتها تعتمد على ربها وتثق بصدق وعده وهناك صفحه أخرى سنتحدث عنها إن شاء الله .

إعداد الرجال

رأيت في المقال السابق أن "جماعة الإخوان المسلمين" كانت في طليعة الجمعيات المنتجة من حيث المشروعات العامة والمؤسسات النافعة ..من مساجد ومدارس ، ولجان خير وبر ، ودروس ومحاضرات وخطب وعظات ، وأندية يتناوبها القول والفعل .

ولكن الأمم المجاهدة التي تواجه نهضة جديدة وتجتاز دور انتقال خطير ، وتريد أن تبني حياتها المستقبلة على أساس متين يضمن للجيل الناشئ الرفاهة والهناءة ، وتطالب بحق مسلوب وعز مغصوب ، في حاجة إلى بناء آخر غير هذه الأبنية ...

إنها في مسيس الحادة إلى بناء النفوس وتشييد الأخلاق وطبع أبنائها على خلق الرجولة الصحيحة ، حتى يصمدوا لما يقف في طريقهم من عقبات ويتغلبوا علي ما يعترضهم من مصاعب.

إن الرجل سر حياة الأمم ومصدر نهضاتها وإن تاريخ الأمم جميعاً إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين الأقوياء النفوس والإرادات . وإن قوة الأمم أو ضعفها إنما تقاس بخصوبتها في إنتاج الرجال الذين تتوفر فيهم شرائط الرجولة الصحيحة . وإني اعتقد ــ والتاريخ يؤيدني ــ أن الرجل الواحد في وسعه أن يبني أمة إن صحت رجولته ، وفي وسعه أن يهدمها كذلك إذا توجهت هذه الرجولة إلى ناحية الهدم لا ناحية البناء ..

وإن الأمم تجتاز أدوار من الحياة كتلك الأدوار التي يجتازها الأفراد علي السواء : فقد ينشأ هذا الفرد بين أبوين مترفين آمنين ناعمين فلا يجد من مشاغل الحياة ما يشغل باله ويؤلم نفسه ولا يطالب بما يرهقه أو يضنيه ، وقد ينشأ الفرد الآخر في ظروف عصيبه وبين أبوين فقيرين ضعيفين فلا يطلع عليه فجر الحياة حتى تتكدس علي رأسه المطالب وتتقاضاه الواجبات من كل جانب وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامسة .

وقد شاءت لنا الظروف أن ننشأ في هذا الجيل الذي تتزاحم الأمم فيه بالمناكب وتتنازع البقاء أشد التنازع وتكون الغلبة دائماً للقوي السابق ..

وشاءت لنا الظروف كذلك أن نواجه نتائج أغاليط الماضي ونتجرع مرارتها ، وأن يكون رأب الصدع وجبر الكسر ، وإنقاذ أنفسنا وأبنائنا ، واسترداد عزتنا ومجدنا ، وإحياء حضارتنا وتعاليم ديننا ..

وشاءت لن الظروف كذلك أن نخوض لجة عهد الانتقال الأهوج ، حيث تلعب العواصف الفكرية والتيارات النفسية والأهواء الشخصية بالأفراد وبالأمم وبالحكومات وبالهيئات وبالعالم كله ، وحيث يتبلل الفكر وتضطرب النفس ويقف الربان في وسط اللجة يتلمس الطريق ويتحسس السبيل وقد اشتبهت عليه الأعلام وانطمست أمامه الصور ووقف علي رأس كل طريق داع يدعوا إليه في ليل دامس معتكر وظلمات بعضها فوق بعض ، حتى لا تجد كلمة تعبر بها عن نفسية الأمم في مثل هذا العهد أفضل من "الفوضى" ..

كذلك شاءت لنا ظروفنا أن نواجه كل ذلك وأن نعمل على إنقاذ الأمة من الخطر المحدق بها من كل ناحية .

وإن الأمة التي تحيط بها ظروف كظروفنا ، وتنهض لمهمة كمهمتنا ، وتواجه واجبات كتلك التي نواجهها ، لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلل بالآمال والأماني . وإنما عليها أن تعد نفسها لكفاح طويل عنيف وصراع قوي شديد : بين الحق والباطل وبين النافع والضار وبين صاحب الحق وغاصبه وسالك الطريق وناكبه وبين المخلصين الغيورين والأدعياء المزيفين .

وأن عليها أن تعلم أن الجهاد من الجهد ، والجهد هو التعب والعناء ، وليس مع الجهاد راحه حتى يضع النضال أوزاره وعند الصباح يحمد القوم السرى .

وليس للأمة عدة في هذه السبيل الموحشة إلا النفس المؤمنة والعزيمة القوية الصادقة والسخاء بالتضحيات والإقدام عند الملمّات وبغير ذلك تغلب علي أمرها ويكون الفشل حليف أبنائها.

ومع أن ظروفنا هي ما علمت .. فإن نفوسنا لا تزال تلك النفوس الرخوة اللينة المترفة الناعمة التي تجرح خديها خطرات النسيم ويدمى بنانها لمس الحرير . وفتياتنا وفتياننا هم عدة المستقبل ومعقد الأمل لا يزال حظ أحدهم أو إحداهن مظهرا فاخراً أو أكلة طيبة أو حلة أنيقة

أو مركباً فارهاً أو وظيفة وجيهة أو لقباً أجوف ، وإن اشترى ذلك بحريته وإن أنفق عليه من كرامته وإن أضاع في سبيله حق أمته .

وهل رأيت أولئك الشبان الذين تنطق وجوههم بسمات الفتوة وتلوح على محياهم مخايل النشاط ويجرى في قسماتهم ماء الشباب المشرق الرقراق وهم يتألمون على أبواب رؤساء المصالح والدواوين بأيديهم طلبات الوظائف ؟ وهل رأيتهم يتوسلون بالصغير والكبير ويرجون الحقير والأمير ويوسطون حتى سعاة المكاتب وحجاب الوزارات في قضايا المأرب وقبول الطلبات ؟

هل تظن ــ يا عزيزي القارئ ــ أن هذا الشباب إذا أسعفه الحظ وتحقق له الأمل التحق بوظيفة من هذه الوظائف الرسمية يفكر يوماً من الأيام في تركها أو التخلي عنها في سبيل عزة أو كرامة وإن سيم الخسف وسوء العذاب ؟

نفوسنا الحالية في حاجة إلى علا ج كبير وتقويم شامل وإصلاح يتناول الشعور الخامد والخلق الفاسد والشح المقيم . وإن الآمال الكبيرة التي تطوف برؤوس المصلحين من رجالات هذه الأمة ، والظروف العصيبة التي نجتازها تطالبنا بإلحاح بتجديد نفوسنا وبناء أرواحنا بناءً غير هذا الذي أبلته السنون وأخلقته الحوادث وذهبت الأيام بما كان فيه من مناعة وقوة ، وبغير هذه التقوية الروحية والتجديد النفسي لا يمكن أن نخطو إلى الأمام خطوة .

إذا علمت هذا وكنت معي أن هذا المقياس أصح وأدق في نهضات الأمم والشعوب فاعلم أن الغرض الأول الذي ترمى إليه جمعيات الإخوان المسلمين (التربية الصحيحة) : تربية الأمة على النفس الفاضلة والخلق النبيل السامي ، وإيقاظ ذلك الشعور الحي الذي يسوق الأمم إلى الذود على كرامتها والجد في استرداد مجدها وتحمل كل عنت ومشقة في سبيل الوصول إلى الغاية ..

ولعلك تسأل بعد هذا : وما الوسائل التي اتخذها الإخوان المسلمين لتجديد نفوسهم وتقويم أخلاقهم ؟ وهل جرب الإخوان هذه الوسائل ؟ وإلى أي مدى نجحت تجربتهم ؟

وموعدنا الكلمات التالية ان شاء الله .

تحديد الوسيلة واعتماد المبدأ

قد علمت أيها القارئ الكريم أن الإخوان المسلمين يقصدون أول ما يقصدون إلى تربية النفوس وتجديد الأرواح وتقوية الأخلاق وتنمية الرجولة الصحيحة في نفوس الأمة ، وقد يعتقدون أن ذلك هو الأساس الأول الذي تبنى عليه نهضات الأمم والشعوب .

وقد استعرضوا وسائل ذلك وطرائق الوصول إليه فلم يجدوا فيها أقرب ولا أجدى من الفكرة الدينية استمساك بالأهداب (الدين) .

الدين الذي يحيى الضمير ويوقظ الشعور وينبه القلوب ، ويترك مع كل نفس رقيباً لا يغفل وحارساً لا يسهو وشاهداً لا يجامل ولا يحابى ولا يضل ولا ينسى ، يصاحبها في الغدوة والروحة والمجتمع والخلوة ، ويراقبها في كل زمان ويلاحظها في كل مكان ، ويدفعها إلى الخيرات دفاعاً ويدعها عن المآثم دعاً ، ويجنبها طريق الذلل ويبصرها سبيل الخير والشر : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف:٨٠) .

الدين : الذي يجمع أشتات الفضائل ويلم أطراف المكارم ويجعل لكل فضلة جزاء ولكل مكرمة كفاءً ويدعو إلى تزكية النفوس والسمو بها وتطعير الأرواح وتصفيتها (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس:٩-١٠) .

الدين : الذي يدعو إلى التضحية في سبيل الحق ، والفناء في إرشاد الخلق ، ويضمن لمن فعل ذلك أجزل المثوبة ، ويد لمن سلك هذا النهج أحسن الجزاء ، ويقدر الحسنة وان صغرت ويزن السيئة وان حقرت ، ويبدل الفناء في الحق خلوداً والموت في الجهاد وجوداً .

 (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران:١٦٩)

 (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء:٤٧) .

الدين:الذي يشترى من المرء هذه الأغراض الدنيوية وتلك المظاهر المادية بسعادة تمتلئ بها نفسه ويهنأ بها قلبه من فضل الله ورحمته ورضوانه ومحبته . (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) (النحل:٩٦)

الدين : الذي يجمع كل ذلك ، ثم هو بعد يصافح الفطرة ويمازج القلوب ويخالط النفوس فيتحد بها وتتحد به ، ويتخلل ذرات الأرواح ويساير العقول فلا يشذ عنها ولا تنبو عنه .. يهش له الفلاح في حقله ، ويفرح به الصانع في معمله ، ويفهمه الصبي في مكتبه ، ويجد ويجد لذته وحلاوته العالم في بحوثه ، ويسمو بفكرته الفيلسوف في تأملاته . وهل رأيت على نفوس البشر سلطاناً من الدين ؟ وهل رأيت في تاريخ البشرية أعظم تأثيراً في حياة الأمم والشعوب منه وهل رأيت للفلاسفة والعلماء ما كان من التأثير البليغ للمرسلين والأنبياء ؟

لا وأبيك فإنما الدين قبس من روح الله السارية في ذرات هذه النفوس وفطرها يضئ ظلامها وتشرق بنوره ويأوي إليها فتهش له .فإذا تمكن منها كان كل شئ له فداء :

 (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٢٤) .

الدين : الذي يسمو بقدسيته وجلاله فوق كل نفس ، ويعلو علي كل رأس ، ويجل عن الاختلاق ، ويتنزه عن التقليد والمحاكاة ، فيوحد بذلك بين القلوب ويؤلف بين النفوس ، ويقطع مادة النزاع ، ويحسم أصول الخلاف ، ويزيد ذلك ثباتاً وقوة بتوجيه القلوب إلى الله وحده ، وصرف النفوس عن الأغراض والمطامع والشهوات واللذائذ ، والسمو بالمقاصد والأعمال إلى مراتب المخلصين الصادقين الذين يبتغون بعملهم وجه الله لا يرجون من ورائه جزاءً ولا شكوراً ، (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى:١٣)

الدين : الذي يسمو بالوفاء إلى درجة الشهادة ، ويعده فريضة يسأل بين يدي الله عنها ، وفضيلة يتقرب بها إلى الله بها ، ودليلاً علي الرجولة الكاملة والعزيمة الصادقة ، (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ) (الأحزاب:٢٣-٢٤) .

الدين : مجتمع الفكر الصائبة ومعقد الآمال المتشعبة ورمز الأماني الفردية والاجتماعية والقومية والعالمية وذلك تعبير له تعبير ، (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون:٨) .

رأى قوم أن يصلحوا من أخلاق الأمة عن طريق العلم والثقافة ، ورأى آخرون أن يصلحوه عن طريق الأدب والفن ، ورأي غيرهم أن يكون هذا الإصلاح عن طريق أساليب السياسة ، وسلك غير هؤلاء طريق الرياضة . وكل أولئك أصابوا في تحديد معاني هذه الألفاظ أو أخطأوا ، وسددوا أو تباعدوا ، وليس هذا مجال النقد والتحديد ولكن أريد أن أقول أن الإخوان المسلمين رأوا أن أفعل الوسائل في إصلاح نفوس الأمم : (الدين).

ورأوا إلى جانب هذا أن الدين الإسلامي جمع محاسن كل هذه الوسائل وبعد عن مساوئها فاطمأنت إليه نفوسهم وانشرحت به صدورهم وكان أول وسائلهم العملية في تطهير النفوس وتجديد الأرواح : (تحديد الوسيلة واختيار المبدأ) وعلي هذا الأساس وضعت (عقيدة الإخوان المسلمين) مستخلصة من كتاب الله وسنة رسوله لا تخرج عنهما قيد شعرة . وفرض الإخوان علي أنفسهم حفاظها والتزام حدودها وتنفيذ نصوصها والقيام بتعهداتها . وأعتقد أنها وسيلة عملية في تربية النفوس وتقويم الأخلاق ، وبهذه المناسبة أذكر كل أخ مسلم بأن من واجبه أن

يحفظ عقيدته ويعمل علي إنفاذ ما تستلزمه من تعهدات ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة:١١٩).

منزلة الصلاة

قد علمت ــ أعزك الله ــ أن الإخوان المسلمين رأوا في الإسلام أفضل الوسائل لتهذيب نفوسهم وتجديد أرواحهم وتزكية أخلاقهم ، فاقتبسوا من نوره عقيدتهم واغترفوا من فيضه مشربهم . وأنت جد عليهم بأن منزلة الصلاة من الإسلام منزلة الرأس من الجسد ، فهي عماده ودعامته وركنه وشعيرته ومظهره الخالد وآيته الباقية ، وهى مع ذلك قرة العين وراحة الضمير وأنس النفس وبهجة القلب والصلة بين العبد والرب ، والمرفأة تصعد برقيها أرواح المحبين إلى أعلى عليين فتنعم بالأنس وترتع في رياض القدس وتجتمع لها أسباب السعادة من عالمي الغيب والشهادة .

وتلك بارقة تسطع في نفس من قدح زنادها ، وحلاوة يستشعرها من تذوق شهدها ، وهل رأيت بربك أعزب وأحلى وأروع وأجلى من مظهر ذلك الخاشع العابد الراكع الساجد القانت آناء الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وقد نامت العيون وهدأت الجفون واطمأنت الجنوب في المضاجع وخلا كل حبيب بحبيبه ونادى منادى العارفين من المحبين :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

آه يا أخي ، إن موقفاً واحداً من هذه المواقف أنفع للقلب وأفعل في النفس وأذكى للروح من ألف عظة قولية وألف رواية تمثيلية وألف محاضرة كلامية ، وجرب تر ، ولأمر ما كان ذلك في لسان القرآن آية الإحسان ، (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الذريات:١٦-١٨) . .

ولأمر ما كان أجر هؤلاء سنياً خفياً ، (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة:١٧) ، ألم يكن عملهم خفياً كذلك ، وهل تصلح الخلوات في حضرة الرقباء؟ وهل يلذ لمحب في غير خلوة نجاء ؟ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولقد حدثوا أن أبا القاسم الجنيد رؤي بعد وفاته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت الإشارات وفنيت العبارات وغابت العلوم وضاعت الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في جوف الليل .

لا تستغرب ــ أيها القارئ الكريم ــ فما نفع القلب خير من خلوة يدخل بها ميدان فكره ، وما تزكت النفس بأفضل من ركعات خاشعات تجلو القلوب وتقشع صدأ الذنوب وتغسل درن العيوب وتقذف في القلب نور الإيمان وتثلج الصدر ببرد اليقين .

والمسلمون في هذا العصر أمام الصلاة طرائق قدد وطوائف بدد: فمنهم قوم أضاعوها وأهملوها وتركوها وجهلوها ، وإذا ذكرتهم بأمرها أو خضت معهم في شأنها لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

ولا أحب أن أقول أن منهم من ينهي عنها ويحقر من أدّاها ويصفه بالرجعية والتأخر والجمود والتقهقر ، وانك لتسمع من هؤلاء وأشباههم أذى كثيراً ومزاعم غريبة وكلاما تعجب منه وتندهش له وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) (الماعون:٤-٥).

وإنه ليزداد عجبك ويتضاعف اندهاشك حين تعلم أن من الذين يعملون لدعوة الإسلام ، ويتصدرون كراسي الدفاع في القضية الإسلامية ، من يهمل أمر الصلاة ويصغر من شأنها كأن النبي لم يصرح بأنها عماد الدين وفريضة المؤمنين ، وكأنهم لم يسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم (ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك) .

ولسنا نحاول أن نقنع هؤلاء بما هو أوضح من الصبح وأجلي من الضوء وأظهر من الشمس ، ولكنا نسأل الله لنا ولهم كمال الهداية وتمام التوفيق .

ونحن بعد هؤلاء أمام صنفين من المسلمين :

الغالبية العظمي والكثرة الساحقة ، وهؤلاء يؤدون صلاة آلية ميكانيكية ورثوها عن آبائهم واعتادوها بمرور الأيام وكر الأعوام لا يتعرفون أسرارها ولا يستشعرون آثارها ، وحسب أحدهم أن يلفظ الكلمات ويأتي بالحركات ويسرد الهيئات ثم ينصرف معتقداً أنه أدي الفريضة وأقام الصلاة وخلص من العقوبة ونال الثواب ..

هذا وهم لا حقيقة له . وليست هذه الأقوال والأفعال من الصلاة إلا جسما روحه الفهم وقوامه الخشوع وعماده التأثر ، وقد ورد في الحديث (إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه..الخ) (ورد من رواية الترمذى والنسائي).

ولهذا رأيت أكثر الناس لا ينتفعون بصلاتهم ولا ينتهون بها عن الفحشاء والمنكر ، مع أنها لو كملت لأثمرت تزكية النفس وتطهير القلب ولمنعت صاحبها اقتراف الآثام وغشيان المحارم .

وصنف ثاني من الناس ــ وهو قليل نادر ــ فهم هذه المعاني من أسرار الصلاة فهو جاد في تحقيقها عامل علي استكمالها ، يصلي بخشوع وتدبر واطمئنان وتفكر ، ويخرج من صلاته وقد تذوق حلاوة العبادة وتأثر بمشاعر الطاعة واستنار بنور الله الذي يتجلى به علي من

وصلوا نفوسهم بجلال معرفته . وفي الحديث : (من صلي صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مصفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه).

ولهذا تفاوتت درجات الناس واختلفت ثوابهم وإن اتحدت الصلاة شكلا ومظهراً وقولا وفعلاً .

ولهذا كانت عناية السلف الصالحين رضوان الله عليهم عظيمة بإحضار قلوبهم في صلواتهم وتمام خشوعهم في عباداتهم . ولهذا كان أول وصف وصف به المؤمنون : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون:٢) .

علم الإخوان المسلمون هذا فأخذوا أنفسهم به وحاولوا أن يدرجوا عليه وكان أهم مظهر من مظاهرهم العملية : أن يحسنوا الصلاة ، وهم يعتقدون أنهم بهذا يسلكون أقرب السبل إلى تجديد النفوس وتطهير الأرواح ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة:١٥٣) .

فيا أيها الأخ المسلم : تفهم ذلك جيداً ، وكن مثال الإحسان في صلاتك ، واعتقد أن أول الخطوات العملية فيها بيننا أن نحسن الصلاة والزكاة.

هما فريضتان ، جعلهما الله سياج الملة ومظهر الشريعة ، وقرن بينهما في كثير من آيات كتابه الكريم تنبيهاً علي عظيم فضلهما وإظهاراًلجلالة قدرهما :هما الصلاة والزكاة ..فبالأولي صلاح ما بينك وبين الله ، وبالثانية صلاح مابينك وبين الخلق .وهل في الوجود إلا خالق ومخلوق ؟ فإذا صلح شأنه معهما فقد بلغت غاية الصلاح ووصلت إلى ذروة السعادة .

الـزكاة

ولئن كانت الصلاة مطهرة النفس وتصفية الروح ، فإن الزكاة مطهرة المال وتصفية الكسب :

 (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) (التوبة:١٠٣)

ولقد جعل الله تبارك وتعالى الصلاة والزكاة مظهر الإيمان ودليل صحة العقيدة ، وأشار القرآن في الآية الكريمة : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (التوبة:١١) ، وهو بمفهومه يدل علي أن من قصر في أداء الصلاة والزكاة فليس من الإخوان في الدين .

وكان هذا المعني هو الذي فهمه أبو بكر رضي الله عنه حين قاتل مانعي الزكاة وأقره عليه صحابة رسول الله وأطلق علي كثير ممن منعوا الزكاة (المرتدون) : روي الستة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (لما توفي النبي ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه علي الله تعالى)؟ فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم علي منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) . وفي رواية عقالاً (والعناق الأنثي من ولد المعز ، والعقال الحبل الذي تقيد به الدابة) .

فانظر يا رعاك الله كيف عبر أبو هريرة رضي الله عنه عن مانعي الزكاة بقوله : (كفر من كفر) ، وكيف رأي أبو بكر أن منع الزكاة هدم للدين يستوجب قتال مانعها وأن شهد أن لا إله إلا الله ، وكيف أقر عمر رأي أبي بكر وعرف أنه الحق .

ولقد توعد الله ورسوله مانعي الزكاة أشد الوعيد ، فقال تبارك وتعالى : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة:٣٤-٣٥) ، وفي الحديث أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه يقول أنا كنزك)، والشجاع الأقرع هو الثعبان الخطر واللهزمتان هما الشدقان .

وفي الحديث كذلك :(ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التي جعلت لنا فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأدنينكم ولأبعدنهم).

وإنما كان ذلك كذلك لان الزكاة نظام المشروعات وقوام الأعمال النافعة وتقويم الفطرة الشحيحة .. تعود السخاء وتدرب علي القصد وتطبع القلوب علي الحب وتدعو النفوس إلى الألفة وتنزع الأغلال والأحقاد ، وتدعو إلى التعاون والتساند في الخيرات وتجنب أصول الشرور والمفاسد ، وتخمد نار الثورات والفتن ..وكل امرئ يولي الجميل محبب ، ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا .

والزكاة مهمة من مهمات الحاكم : عليه القيام بجمعها ، وتنظيم تحصيلها والإشراف علي إنفاقها في مصارفها التي جعل الله لها . ولو أن الحكومات الإسلامية عنيت بشأن الزكاة لكانت لها مورداً حلالاً طيباً يغنيها عن الضرائب الجائرة والمكوس الظالمة ولأحيت بذلك فريضة ضائعة وركناً مهملا من أركان الإسلام . فأما إذا نسيت الحكومات الإسلامية واجبها حيال

الزكاة جمعاً وإعطاءً ، فإن على الأفراد أن يقوموا بإحياء هذه الشعيرة وإعادة هذه الفريضة وإخراج حق الله لعيال الله ، فمن قصر في ذلك فإثمه على نفسه وجريرته على عنقه وجزاؤه أليم عند ربه .

وها أنت ترى أن أفراد المسلمين تغافلوا عن حق الله في أموالهم ولم يخرجوا نصيب الفقراء من إيرادهم ، مما قطع العلائق وأكثر الجرائم ولوث النفوس وزاد أحقادها وأضغانها .

رأى الإخوان المسلمون ذلك فأرادوا أن يكونوا الرعيل الأول يضربون للناس المثل عملياً في إحياء هذا الركن ، ويبدءون بأنفسهم فيخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ، فإذا نجحوا في ذلك كانوا حجة على المقصرين ودليلاً للراغبين ودعاة للقاعدين .

وقد سبقت إلى الخير في هذا الشأن برمبال القديمة من أعمال مديرية الدقهلية بالقطر المصري ، فجمعت الزكاة وصرفتها في مصارفها التي جاءت بها الآية الكريمة :

 (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٦٠).

ولقد كنت عظيم الإشفاق شديد الخوف من انقسام الوحدة وانصداع الكلمة ، لأن في المسلمين الآن خصال تحول دون اجتماعهم على مثل هذا الخير ، ولا سيما إذا اتصل بالمادة والمال فما بالك إذا كان المشروع من أساسه مالياً ؟ كنت أخشى على إخوان برمبال شح الأغنياء وغلهم أيديهم عن الإعطاء ..وتهم الظنيين الذين يخلقون لكل شيء عيباً ولو كان هو الكمال مجسماً ، فيلمزون المطوعين بالرياء ويلمزون الجامعين بالمحاباة .. وجشع الآخذين الذين يود أحدهم أن لو كان ما جمع له كله ليس من غيره من منصب .. والعادات المتوارثة التي درجنا عليها والتي تجعل كل بيت ممن بقيت فيهم بقية من المحافظة على إخراج الزكاة يفضل أن يشرف بنفسه على صرف زكاة ماله ولا يؤثر بذلك غيرة مهما كان في هذا الإيثار من فائدة .

كنت أخشى على إخوان برمبال هذه المعوقات الأربعة وهي واضحة ملموسة في مجتمعاتنا مما يبكي ويؤسف ولكن إخوان برمبال وأهل برمبال كانوا أرفع من ذلك وأسمى فقرت بهم العين وسعدت بهم النفس واطمأن بعملهم القلب وأثبتوا للناس أن الطهارة ــ إن خالطت نفوسهم ــ والثقة ــ إن تبودلت بينهم ــ كفيلتان بتذليل كل عقبة .

لقد كان أغنياء برمبال أرفع من أن يمتنعوا عن أداء حق الله إذ داعي الزكاة بهم أهابا ..ولقد كان فقراء برمبال أرفع من أن تمتد أعينهم إلى حقوق إخوانهم فما هو إلا أن وصل إلى كل منهم ما قسم له من الزكوات المجموعة حتى سرت نفسه ولهج لسانه بالدعاء للمزكين وللمنظمين .. ولقد كان إخوان برمبال أحكم وأحزم بتوفيق الله تعالى من أن يدعو للتهم مجالا وللظنة شبهة . فتكونت منهم لجنة أولي لعمل الكشوف بالمستحقين أخذ عليها العهد والميثاق

ألا تحابي ولا تجامل ولا تفشي سرا ولا تظهر عورة ثم تلتها لجنه أخرى للفحص عن هـذه الكشوف ومراجعتها والتثبت من صحتها ثم لجنه ثالثة لتقدير الأنصبة المستحقة لكل من تثبت حاجته واستحقاقه ثم لجنه رابعه لمراجعة هذا التقدير وإقراره ثم لجنه خامسه للقيام بـالتوزيع عمليا . وكان هذا النظام الدقيق الموفق مدعاة إلى الإعجاب والفرح من كل مـن شـاهدوه أو علموا به أو رأوا آثاره الرضية في نفوس برمبال وجيران برمبال ..وكان أهل برمبال بعـد ذلك أكبر من العادات وأسمي من القيود فاتبعوا الرشد وأثاروا التعاون وضربوا في ذلك أروع المثل في تحقيق أمنية كنا نحلم بها من زمن بعيد .

أفلست ترى أيها القارئ بعد هذا البيان أن الإخوان المسلمين قوم عمليـون ... وأفـلا يـري الإخوان المسلمون في ذلك تحقيقاً لآمالهم فيعملوا علي أن نسمع في القريب عن هذه الخطوات الموفقة في بقية الشعب النشيطة (فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٨).

الجهاد عزّنـا

مر الأسبوع الفائت ولم أناج القراء الكرام فيه بهذه الخطرات التي تمليها العاطفة ويفيض بها القلب عن جهود الإخوان المسلمين .ولا أكتم القراء الكرام أني وجدت لذلك ألم الحرمان ووخز الضمير لا لأننا نحب أن نرائي الناس بعملنا أو نظهرهم علي جهودنـا ، فقـد يعلـم الله أن الإخوان المسلمين يعملون وهم يبتغون وجه الله ويريدون بذلك رضوانه ولا ينتظرون من أحد جزاء ولا شكورا ، ويعتقدون أنهم إنما يقومون ببعض ما يوجبه الإسـلام علـي أبنائـه ولا يزالون بعد مقصرين . وإنما نحب أن نبلغ الناس دعوتنا ونحدد لهم وجهتنـا ونكـشف عـن حقيقتنا ، لعلنا نجد منهم أعوانا على الخير وهداة إلى البر فيتضاعف النفع ويقـرب المـدى وتدنو الغاية ويتحقق ما نرجو من إصلاح شامل وإنقاذ عاجل .

وإن كل يوم يمضي لا تعمل فيه الأمة عملاً للنهوض من كبوتها يؤخرها أمداً طويلاً .وإن في دعوة الإخوان لو فقهها الناس لمنقذاً ، وإن في منهاجهم لو اتبعته الأمة لنجاحـاً ، وإن فـي جهودهم لو أعينوا عليها لأملاً ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وبعد فقد ورد في الصحيح ما معناه أن معاذاً ﷺ كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : (إن شئت يا معاذ حدثتك برأس هذا الأمر وذروة السنام منه . إن رأس هذا الأمر لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وإن قوام هذا الأمر إقامـة الـصلاة وإيتاء الزكاة وإن ذروة السنام منه الجهاد في سبيل الله . إنما أمرت أن أقاتـل النـاس حتـى

يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم علي الله عز وجل ، والذي نفس محمد بيده ما شحب وجه ولا أغبرت قدم في عمل تبتغي به درجات الجنة بعد الصلاة المفروضة كجهاد في سبيل الله ، ولا أثقل ميزان عبد كدابّه تنفق (أي تموت) في سبيل الله أو يحمل عليها في سبيل الله).

ذلك تعريف النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام وهو أعرف الناس بالإسلام وإن الإخوان المسلمين لا يحملون الناس علي غير الإسلام ومبادئ الإسلام ، ولا ينهجون إلا مناهج الإسلام وشعاب الإسلام .

وقد حدثتك عنهم في الصلاة والزكاة وما يريدون من أنفسهم ومن الناس حيالها ، وهي قوام الأمر ودعامته . فلأتحدث إليك الآن عن الإخوان المسلمين المجاهدين ، وماذا يريدون من أنفسهم ومن الناس حيال الجهاد في سبيل الله وهو من الإسلام ذروة السنام .

من الجهاد في الإسلام أيها الحبيب : عاطفة حيه قويه تفيض حناناً إلى عز الإسلام ومجده ، وتهفو شوقاً إلى سلطانه وقوته ، وتبكي حزناً علي ما وصل إليه المسلمون من ضعف وما وقعوا فيه من مهانة ، وتشتعل ألماً علي هذا الحال الذي لا يرضي الله ولا يرضي محمداً عليه الصلاة والسلام ولا يرضي نفساً مسلمة وقلباً مؤمناً .و(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) كما ورد في الحديث الصحيح .

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن يحملك هذا الهم الدائم والجوى اللاحق علي التفكير الجدي في طريق النجاح وتلمس سبيل الخلاص وقضاء وقت طويل في فكرة عميقة تمحص بها سبل العمل وتتلمس فيها أوجه الحيل لعلك تجد لأمتك منفذا أو تصادف منقذاً ، ونية المرء خير من عمله والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تنزل عن بعض وقتك وبعض مالك وبعض مطالب نفسك لخير الإسلام وبني المسلمين ..فإن كنت قائداً ففي مطالب القيادة تنفق ، وإن كنت تابعاً ففي مساعدة الداعين تفعل ، وفي كل خير ، وكلا وعد الله الحسني ، والله تبارك وتعالى يقول (مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (التوبة:١٢٠-١٢١) .

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تأمر بالمعروف وأن تنهي عن المنكر ، وأن تنصح لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وأن تدعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنه وما ترك قوم التناصح الا ذلوا وما أهملوا التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكـــر الا خذلوا ، (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المائدة:٧٨-٧٩).

و من الجهاد في سبيل الله ايها الحبيب :ان تتنكر لمن تنكر لدينه وان تقاطع مـــن عـــادي الله ورسوله فلا يكون بينك وبينه صله ولا معامله ولا مؤاكله ولا مشاربه وفي الحديث : (إن أول ما دخل النقص علي بني اسرائيل انة كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع مـــا تصنع فانه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو علي حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشـــريبه وقعيده فلما فعلو ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض).

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تكون جندياً لله تقف له نفسك ومالك لا تبقي علي ذلك من شئ . فإذا هدد مجد الإسلام وديست كرامة الإسلام ودوي نفير النهضه لاستعادة مجد الإسلام كنت أول مجيب للنداء وأول متقدم للجهاد ، (إِنَّ اللهَ اشْـــتَرَى مِـــنَ الْمُـــؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (التوبة:١١١) ، وفي الحديث: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات علي شعبة من النفاق) رواه مسلم وأبو داود والنسائي .وبذلك يتحقق مـــا يريد الله من نشر الإسلام حتى يعم الأرض جميعاً .

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب: أن تعمل علي إقامة ميزان العدل وإصـــلاح شـــئون الخلق وانصاف المظلوم والضرب علي يد الظالم مهما كان مركزه وسلطانه .

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وســـلم قـــال : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر) رواه أبو داود والبخاري بمعناه ، وعـــن جابر رضي الله عنه : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (سيد الشهداء حمزة بـــن عبـــد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) رواه ابن ماجه باسناد صحيح .

ومن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى ان لم توفق إلى شـــئ مـــن ذلـــك كلـــه : أن تحـــب المجاهدين من كل قلبك وتنصح لهم بمحض رأيك وقد كتب الله لك بذلك الأجر وأخلاك مـــن التبعة . ولا تكن غير ذلك فيطبع علي قلبك ويؤاخذك أشد المؤاخـــذة : (لَـــيْسَ عَلَـــى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَـــى

الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (التوبة:٩١-٩٣) .

وبعد فهذه بعض مراتب الجهاد في الإسلام ودرجاته فأين الإخوان المسلمون من هذه الدرجات؟

فأما أنهم محزونون لما وصل اليه المسلمون آلمون ، فعلم الله أن أحدهم يجد من ذلك ما يذيب لفائف قلبة وينال من أعماق نفسة ويحز في قرارة فؤادة ويمنعة في كثير من الأحايين الأنس بأهله وإخوانه والمتعة بكل ما في الوجود من لذة وجمال .

وأما انهم يفكرون في سبيل الخلاص ، فعلم الله أنه ما من فكرة تحتل أفكارهم وما من خطة تستهوى عواطفهم وما من شان يشغل عقولهم كهذا الشان الذي ملك عليهم رؤوسهم وقلوبهم واستبد منهم بشعورهم وتفكيرهم.

وأما أنهم يبذلون في هذا السبيل وقتا ومالا ، فحسبك أن تزور ناديا من أنديتهم لترى عيونا أذبلها السهر ووجوها أشحبها الجلد وجسوما أضناها النصب وأخذ منها الإعياء على أنها فتيّة بإيمانها قوية بعقيدتها ، وشبابا يقضون ليلهم إلى ما بعد انتصافه مكبين على المكتب أو عاكفين على المناضد وأترابهم في لهوهم وأنسهم ومتعتهم وسمرهم . ورب عين ساهرة لعين نائمة وإنما نحتسب ذلك عند الله ولانمتن به ، (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات:١٧) .

فإذا سألت عن المال الذي ينفق علي دعوتهم فما هو إلا مالهم القليل يبذلونه في سخاء ورضاء وراحة وطمأنينة . وإنهم ليحمدون الله إذ ترقت تضحيتهم بالمال من درجة السخاء بكماليات العيش إلى درجة الاقتصاد من ضروریاته وإنفاق ما يقتصد في سبيل الدعوة ، (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:٩) ، ما أسعدنا أن يقبل الله منا ذلك وهو منه وإليه .

وأما أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر : فقد بدأوا في ذلك بأنفسهم ثم بأسرهم وبيوتهم ثم بإخوانهم وأصدقائهم وهم يتذرعون في ذلك بالصبر والأناه والحكمة والموعظة وهل تري جريدتهم هذه إلا مظهراً من مظاهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وهل تري عظاتهم وأقوالهم إلا سبيلاً في هذه السبيل ؟ وأما ما بقي من درجات الجهاد فواجب الجماعة فعلي الجماعة أن تجيب ، وإن الإخوان المسلمين في ذلك الرعيل الاول لا يدخرون وسعاً ولا يحتجزون جهداً ، وهم يعلمون منزلة ذلك من الإسلام ويعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من لقي الله بغير اثر من جهاد لقي الله وفيه ثلمة) رواه الترمذي وابن ماجه . وهم يسألون الله أن يوفقهم إلى لقائه وليس بهم ثلمات . وقد قال الله تعالى لنبيه : (لا

تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ) (النساء:٨٤) ، وإنا لنرجوا أن نكون بذلك قد أبلغنا الجماعة ، وأن يكون هذا الصوت قد وصل إلى نفوسهم فوجد منها خصوبة يزداد بها عدد العاملين وتنتظم معها صفوف المجاهدين (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:٦٩).

حق القرآن

ما رأيت ضائعاً أشبه بمحتفظ به ولا مهملاً أشبه بمعني بشأنه من القرآن الكريم في أمتنا هذه : أنزل الله القرآن الكريم كتاباً محكماً ونظاماً شاملاً وقواماً لأمر الدين والدنيا ، (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:٤٢) .

وأعتقد ان أهم الأغراض التي تجب علي الأمة الإسلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد :

أولها : الإكثار من تلاوته ، والتعبد بقراءته ، والتقرب إلى الله تبارك وتعالى به ..

وثانيها : جعله مصدراً لاحكام الدين وشرائعه ، منه تؤخذ وتستنبط وتستقي وتتعلم ..

وثالثها: جعله أساساً لأحكام الدنيا منه تستمد وعلي مواده الحكيمة تطبق .

تلك أهم المقاصد والأغراض التي أنزل الله لها كتابه وأرسل به نبيه وتركه فينا من بعده واعظاً مذكراً وحكماً عدلاً وقسطاساً مستقيماً . ولقد فهم السلف رضوان الله عليهم هذه المقاصد فقاموا بتحقيقها خير قيام ، فكان منهم من يقرأ القرآن في ثلاث ومنهم من يقرأه في سبع ومنهم من يقرأه في أقل من ذلك أو أكثر . ولقد كان بعضهم إذا شغل عن ورده من القرآن نظر في المصحف وقرأ بعض الآيات الكريمة وقال : حتى لا أكون ممن اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . فكان القرآن ربيع قلوبهم وورد عباداتهم يتلونه آناء الليل وأطراف النهار .ورضي الله عن الخليفة الثالث الذي لم يسل المصحف والحصار علي بابه والسيف علي عنقه

تمني كتاب الله أول ليلة وآخره لا في حمام المقادر

ويرحم الله ذلك الذي لم يجد في رثائه من أن يقول :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وأنت إذا رجعت إلى سيرهم لم تجد واحدا منهم هجر كتاب الله أو ترك تلاوته أسبوعاً واحـــدا فضلا

عن شهر كامل فضلا عن السنين والأعوام . ولا أحب أن أطيل عليك بما أشرقت بـــه كتـــب السير واستنارت بضوء سناه صحائف كتب التاريخ . وهم حينما أرادوا أن يستنبطوا أحكـــام دين الله كان القرآن أول المصادر ، وما الأول إذن ان لم يكن كتاب الله ؟ وها أنت تـــرى أن المصطفي صلى الله عليه وسلم قد أقر معاذا حين سأله بم يحكم ، فقال بكتاب الله وبدأ به ثم ثنا بالسنة المطهرة. وقد علمت أن عمر رضي الله عنه حظر علي كثير من الصحابة الكـــرام أن يحدثوا الناس ــ وهم حديثوا عهد بالإسلام ــ بالأحاديث والوقائع حتى يفقهوهم في كتاب الله أولا ويقفوهم علي حلاله وحرامه . وقد علمت كذلك أن الأئمة من صدور التابعين وتـــابعيهم بإحسان أمثال سعيد بن المسيب ما كانوا يسمحون للناس بتدوين فتـــاويهم حـــذر الانـــصراف بأقوالهم عن كتاب الله . ولقد مزق سعيد الصحيفة من يد من دوّن إفتاءه وقال : تأخذ كلامي وتدع كتاب الله ثم تذهب تقول قال سعيد قال سعيد ! عليك بكتاب الله وسنة رسوله .

أفلست ترى من هذا وغيره أن السلف الصالحين رضوان الله عليهم قد جعلوا كتاب الله تعالى أصل الأصول التي يستنبطون منها دين الله وأحكامه .

وما كانت أحكام الدنيا عندهم الا وفق ما يأمر به ونزولاً علي حكمه .. حقوق تؤدى وحـــدود تقام وأحكام تنفذ وأوامر تسري لا إلغاء ولاتعطيل ولا تعليل ولا تأويل .

كذلك كان ، يوم كان الإسلام غضاً طرياً ، وثمر الدين بالغاً جنياً ، ويوم فهم المسلمون حكمة وجود القرآن بينهم كما علمهم رب القرآن ونبي القرآن ، (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَـــارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (ص:٢٩).

ثم دالت تلك الدولة ، وذهب ماكان للقرآن علي عقول الناس وألبابهم من صولة ، وسرت في ألسنتهم وعقولهم لوثة العجمة ، فإذا هم في ناحية والقرأن في ناحية أخرى وبين الناحيتين بعد المشرقين :

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

فأما التعبد بتلاوة القرآن وقرائته آناء الليل وأطراف النهار فالنذر اليسير منا من عني بـــذلك وعمل عليه .. وأما بقية المتعبدين فلهم فيما وضعوا لأنفسهم ووضع لهم شيوخهم مـــن أوراد

وأحزاب ووظائف وصلوات ما تركوا به كتاب الله وأحلوه محله حفظاً و اهتماماً وتعبداً وتلاوةً وترديداً وتكراراً .

وما نحرم تلاوة الأوراد الصحيحة ، ولا نحول بين الناس والأدعية والأحزاب التي لا تخالف ظاهر الشريعة . ولكن نقول لهم : كتاب الله أولى أولاً ، رتبوا على أنفسكم منه أحزاباً تصل قلوبكم به وتربط أرواحكم بفيضه وإشراقه ، ثم اذكروا الله بعد ذلك بما شئتم من الصيغ التي تنطبق علي أحكام الدين . أما أن تهملوا القرآن جملة وتجعلوا عبادتكم كلها مما وضعتم لأنفسكم أو وضع غيركم لكم فترك لكتاب الله ، وإهمال لحقوقه .

وأما استنباط الأحكام منه فقد وقع الناس في جهالة بكتاب الله تجعل بينهم وبين ذلك حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً ، مما اضطرهم إلى القناعة بالملخصات والرضا بالتعليقات وقصر هممهم عن السمو إلى ما هو أرقي من ذلك من الغايات .

وأما تطبيق أحكامه الدنيوية فقد استبدلها القوم بغيرها وأحلوا سواها محلها ، وجعلوا تشريع الأجانب وما وضع الفرنسيون والرومان أساساً لتشريعهم ومصدراً لأحكامهم . وبذلك تعطلت أحكام كتاب الله وأصبحت بين المسلمين نسياً منسياً وفيها ــ علم الله ــ لهم كل خير لو كانوا يسمعون .. واكتفى المسلمون بعد هذا كله من القرآن الكريم بأن جعلوه تمائم لأمراضهم وزينة لمجتمعاتهم وسلوة في حفلهم وأفراحهم وأحزانهم . وليتهم إذ جعلوه كذلك أعطوه حقه بل تراهم في محله لاهين غافلين لاعبين منصرفين إلى اللغو والحديث واللهو العبث ، والله تبارك وتعالى يقول : (وَإِذَا قُرِئَ القرآن فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (لأعراف:٢٠٤) .

كان القرآن فيما مضى زينة الصلوات فأصبح اليوم زينة الحفلات ، وكان قسطاس العدالة في المحاكم فصار سلوة العابثين في المواسم وكان واسطة العقد في الخطب والعظات فسار بواسطة العقد في الحلى والتميمات ، أفلست محقاً حين قلت : ما رأيت ضائعاً أشبه لمحتفظٍ به من كتاب الله ! تناقض عجيب في هذا الموقف منا أمام القرآن : أننا نعظمه ، ما في ذلك شك .. ونذوذ عنه ، ما في ذلك شك .. ونقترب إلى الله به ما في ذلك شك ، ولكن ياقوم : أخطأتم طريق التعظيم وتنكبتم سبيل الذود عنه وضللتم عن جادة التقرب إلى الله به .

أليس من الإضاعة لكتاب الله أن ترى المراكز التي كان القرآن يعفي منها عدداً عظيماً من القرعة العسكرية صارت اليوم خلواً ممن يحفظه ويتقدم للمعافاه به ؟

أوليس من الإضاعة لكتاب الله أن ترى الطالب يدخل الأزهر الشريف وهو يحفظه لأن ذلك شرط دخوله ، ثم يخرج منه وقد نسيه لأن القرآن لم يشترط في إجازته بنهاية مدة تعليمه. فتراه إن خرج ليكون إماماً يصلى بالناس قصر بهم ، وإن كان واعظاً استند إلى فقهاء الريف الحافظين في عظاته ودروسه ، وإن كان محامياً أو قاضياً لجأ إلى المصحف في تصحيح الآيات التي يستشهد بها من كتاب الله ! إننا حقيقةً أضعنا كتاب الله وكأنه بيننا كتاب أثري لا يسري مفعوله ولا ينفذ حكمه ، وهذا في الحقيقه أصل ما أصابنا من بلاء وشر .

وإذا علمت هذا أيها القارىء الكريم .. فاعلم أن الإخوان المسلمين يحاولون في جد أن يعودوا هم أولاً إلى كتاب الله ، يتعبدون بتلاوته ويستنيرون في تفهم أقوال الأئمة الأعلام بأياته ويطالبون الناس بإنفاذ أحكامه ويدعون الناس معهم إلى تحقيق هذا الغاية التي هى أنبل غايات المسلم في الحياة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

منهج الإخوان وميزانهم

أنت إذا رجعت تاريخ النهضات في الأمم المختلفة شرقية وغربية قديما وحديثا ، رأيت أن القائمين بكل نهضة موفقة نجحت وأثمرت كان لهم منهاج محدود عليه يعملون وهدف محدود إليه يقصدون .. وضعه الداعون إلى النهوض وعملوا على تحقيقه ما امتد بهم الأجل وأمكنهم العمل ، حتى إذا حيل بينهم وبينه وانتهت بهم تلك الفترة القصيرة فتره الحياة في هذه الدنيا ، خلفهم من قومهم غيرهم يعملون على منهاجهم ، ويبدءون من حيث انتهى أولئك ، لا يقطعون ما وصل ، ولا يهدمون ما بنو ، ولا ينقضون ما أسسوا وشادوا ، ولا يخربون ما عمروا . فإما زادوا عمل أسلافهم تحسينا ، أو مكنوا نتائجه تمكيناً ، وإما تبعوهم على آثارهم فزادوا البناء طبقة وساروا بالأمة شوطاً إلى الغاية حيث يصلون بها إلى ما تبتغي ، أو ينصرفون راشدين ويخلفهم غيرهم . وهكذا دواليك حتى تحقق الآمال وتصدق الأحلام ويتم النهوض ويثمر الجهاد وتصل الأمة إلى ما إليه قصدت وله عملت ، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (الزلزلة:٧) .

راجع تاريخ الهيئات والشعوب تر هذا القول واضحا بينا ، وأن أساس النجاح في كل نهضاتها منهج محدود وقوم يعملون في حدود هذا المنهج ، لا يملون ولا يفترون ولايسأمون ولا يمتنون ، ذلك واضح جلي في الخطوات التي سلكتها دعوة الإسلام الأولى ، فقد وضع الله لها منهاجاً محدوداً يسير بالمسلمين الأولين رضوان الله عليهم إليه ..دعوة في السر .. ثم إعلان بهذه الدعوة ونضال في سبيلها لا يمل .. ثم هجرة إلى حيث القلوب الخصبة والنفوس

المستعدة .. فإخاء بين هذه النفوس وتمكين عرى الإيمان في قلوبهـا ..ثـم نـضال جـدي وانتصاف من الباطل للحق . وهذا أبو بكر يريد أن يخرج من مكة إلى المدينة فيأمره النبـي صلى الله عليه وسلم أن ينتظر حتى يأتيه هو إذن الله بذلك . حتى إذا تمت الخطـوات فـي القسم الأول من منهاج الدعوة ، وهى التي أنيطت بالرسول صلى الله عليه وسـلم تـشريعاً وتطبيقاً ، أنزل الله قوله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) (المائدة:٣).

ثم جاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة والتابعين من نقلوا هـذا النمـوذج الكامل من جزيرة العرب إلى غيرها من بلدان العالم لتكون كلمة الله هي العليـا ، وحتـى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وأنت إذا رجعت بذاكرتك إلى تاريخ الفرق الإسلامية ، وإلي الأدوار التي سبقت ، وقارنـت قيام الدولة العباسية في الشرق ، ثم إلى نهضة الدول الحديثة الأوربية من فرنـسا وايطاليـا وروسيا وتركيا ــ سواء في الدور الأول وهو دور تكوين الوحدات وتأسيس الحكومات أو في هذا الدور وهو دور تكوين المبادىء ومناصرة النظريات ــ لرأيت ذلك يخضع إلـى منـاهج معروفة الخطوات تؤدى إلى النتيجة الحتمية التي تعمل لها الأمة .

أعتقد يا عزيزي أن كل انقلاب تاريخى وكل نهضة في أمة تسير طبق هذا القانون .. حتـى النهضات الدينية التي يرأسها الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم ، إلا أن هذه النهـضات يرسم منهاجها الحق تبارك وتعالى ويهدى الرسول ومن ورائه قومه ويرشدهم إلى خطـوات المنهج خطوة خطوة ، كل خطوة في وقتها المناسب ، ويؤيدهم في كل ذلك بنصره .. فتكون النهضة موفقه لا محالة ، (كَتَـبَ اللهُ لأَغْلِـبَنَّ أَنَـا وَرُسُـلِي إِنَّ اللهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ) (المجادلة:٢١) ، ومن أين يأتي الخطأ إذا كان واضع المنهج العليم الخبيـر ومنفـذه معصوم من الزلل محفوظ من الخطأ مؤيد بالتوفيق والنصر ــ ومن هنا كانت النبوات رحمـةً للعالمين ــ ؟

هذا كلام أعتقد أن القراء فيه قسمان : قسم درس تاريخ الأمم وأطوار نهوضها فهو مؤمن به معتقد له ، وقسم لم تتح له هذه الفرصة فإن شاء ليعلم أني لم أقل إلا الحق وإن شاء وثق فمـا أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

كان ذلك في النهضات الموفقة ، فهل سارت نهضتنا وفق هـذا القـانون الكـوني والـسنة الاجتماعية ..؟

ذلك ما أشك فيه كثيراً ، فإني ألاحظ أن خلق التسرع المركوز في طباعنا ، وسـرعة التـأثر وهياج العواطف الذي يبدو فينا واضحاً ، وغيرهما من أسباب اجتماعية وغير اجتماعيـه .. جعلت نهضتنا فورات عاطفية تشتد وتقوى بقوة المؤثر الوقتي وشدته ثم تخمد وتزول كأن لم يكن شيء . ولئن كانت الغاية التي نعمل لها جميعاً واضحة معروفة للكثيرين فأنا واثق مـن أمرين يلازمان هذه المعرفة :

الأمر الأول : أن الوسائل غير معروفة ولا محدودة ، وقد تكون متعاكسة يخبط بعضها بعضاً ونحن لا نشعر .

والأمر الثاني : أن الصلة منقطعة تماماً بين السابق اللاحق .. يصل الـسابق إلـى نـصف الطريق فإذا جاء اللاحق لم يتبعه لإنقطاع الصلة بينهم ، فيبدأ طريقاً جيداً قد يصل فيـه إلـى مقدار ما وصل سابقه وقد يقصر عنه وقد يسبق قليلاً ، ولكنه على كل حال لا يصل بالأمانة إلى النهاية لأن أعمار الأفراد قصيرة بالنسبة لأعمار النهضات والشعوب .

ونحن نتصور أن الواحد يستطيع أن يحقق للأمة كل ما تبتغي ، وهى فكرة خياليـة وخدعـة نفسية عاطفية يجب أن تزول من نفس كل عامل حتى ينتفع بها عمل سلفه .

هذا استطراد لابد منه وبعده أقول لك إن للإخوان المسلمين منهاجاً محدوداً يتابعون السير عليه ويزنون أنفسهم بميزانه ويعرفون بين الفينة والفينة أين هم منه . فإذا سألتهم عن أصول هـذا المنهاج النظرية ما هي؟ .. فإني أجيبك في صراحة تامة : هو الأصول و القواعد التي جـاء بها القرآن . فإذا قلت وما وسائلهم و خطواتهم العملية أقول لك في صـراحة كـذلك : هـي الوسائل والخطوات التي أثرت عن الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، ولا يصلح آخـر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وأما بعد ، فبهذه الكلمة تنتهي تلك السلسلة المجملة من الحديث عن الإخوان المسلمين العمليين . وأرجو أن يكون لها أثرها المنشود في نفس قرائنا الكرام ، فيؤازروا أولئك القوم الذين وقفوا كل شيء في سبيل الله والدعوة ، وينضموا إليهم ليساهموا معهم في هذه النهـضة الموفقـة ، التي يكسب العامل فيها كل يوم نصراً جديداً ، إن لم يؤده إلى الفتح فسيؤدي إليه مـن بعـده بفضل مجهوده إن شاء الله :

 (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة:١٠٥) .

بين الأمس واليوم

١ـ رسالة النبـي الأمين

منذ ألف و ثلاثمائة سنة و سبعين عاما نادى محمد بن عبد الله النبي الأمي في بطن مكة و على راس الصفا :

 (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (لأعراف:١٥٨) .

فكانت تلك الدعوة الجامعة حدا فاصلا في الكون كله ، بين ماض مظلم ، و مستقبل باهر مشرق ، و حاضر زاخر سعيد ، و إعلانا واضحا مبينا لنظام جديد شارعه الله العليم الخبير و مبلغه محمد البشير النذير ، و كتابه القرآن الواضح المنير ، و جنده السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار ، و الذين اتبعوهم بإحسان ، و ليس من وضع الناس ، و لكنه صبغة الله ، و من أحسن من الله صبغة :

 (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ) (الشورى:٥٢-٥٣) .

٢ـ منهاج القرآن الكريم في الإصلاح الاجتماعي

و القرآن هو الجامع لأصول هذا الإصلاح الاجتماعي الشامل ، و قد أخذ يتنزل على النبي صلى الله عليه و سلم ، ويعلن به المؤمنين بين الآن و الآن بحسب الوقائع و الظروف و المناسبات

 (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ، وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) (الفرقان:٣٢-٣٣) .

حتى اكتمل به الوحي و حفظ في الصدور و السطور في مدى اثنتين و عشرين سنة و نيفا ، و قد جمع الله فيه لهذه الأمة تبيان كل شيء ، و أصول الإصلاح الاجتماعي الكامل الذي جاء بـــه تكاد تنحصر في هذه الأصول :

أ ــ الربانية .

ب ــ التسامي بالنفس الإنسانية .

ج ــ تقرير عقيدة الجزاء .

د ــ إعلان الأخوة بين الناس .

هـــ ــ النهوض بالرجل و المرأة جميعا ، و إعلان التكافل و المساواة بينهما ، و تحديد مهمـــة كل منهم تحديدا دقيقا .

و ــ تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة و الملك و العمل و الصحة و الحرية و العلم و الأمـــن لكل فرد و تحديد موارد الكسب .

ز ــ ضبط الغريزتين : غريزة حفظ النفس ، و حفظ النوع ، و تنظيم مطالب الفم و الفرج

ح ــ الشدة في محاربة الجرائم الأصلية .

ط ــ تأكيد وحدة الأمة و القضاء على كل مظاهر الفرقة و أسبابها .

ي ــ إلزام الأمة الجهاد في سبيل مبادئ الحق التي جاء بها النظام .

ك ــ اعتبار الدولة ممثلة للفكرة و قائمة على حمايتها ، و مسؤولة عن تحقيـــق أهـــدافها فـــي المجتمع الخاص ، و إبلاغها للناس جميعا .

٣ . الشعائر العملية لهذا النظام

و قد خالف النظام القرآني غيره من النظم الوضعية و الفلسفات النظرية فلم يتـــرك مبادئـــه و تعاليمه نظريات في النفوس ، و لا أراء في الكتب ، و لا كلمات على الأفواه و الشفاه ، و لكنه وضع لتركيزها و تثبيتها و الانتفاع بآثارها و نتائجها مظاهر عملية ، و ألزم الأمة التي تـــؤمن به و تدين له بالحرص على هذه الأعمال و جعلها فرائض عليها لا تقبل في تضييعها هـــوادة ،

بل يثيب العاملين و يعاقب المقصرين عقوبة قد تخرج بالواحد منهم من حـــدود هـــذا المجتمـــع الإسلامي و تطوح به إلى مكان سحيق .
و أهم هذه الفرائض التي جعلها هذا النظام سياجا لتركيز مبادئه هي :

أ ــ الصلاة و الذكر و التوبة و الاستغفار...الخ .
ب ــ الصيام و العفة و التحذير من الترف .
ج ــ الزكاة و الصدقة و الإنفاق في سبيل الله .
د ــ الحج و السياحة و الرحلة و الكف و النظر في ملكوت الله .
هـــ ــ الكسب و العمل و تحريم السؤال .
و ــ الجهاد و القتال و تجهيز المقاتلين ، و رعاية أهليهم و مصالحهم من بعدهم .
ز ــ الأمر بالمعروف و بذل النصيحة .
ح ــ النهي عن المنكر ومقاطعة مواطنه و فاعليه .
ط ــ التزود بالعلم و المعرفة لكل مسلم و مسلمة في فنون الحياة المختلفة كل فيما يليق به .
ي ــ حسن المعاملة و كمال التخلق بالأخلاق الفاضلة .
ك ــ الحرص على سلامة البدن و المحافظة على الحواس .
ل ــ التضامن الاجتماعي بين الحاكم و المحكوم بالرعاية و الطاعة معا .

فالمسلم مطالب بأداء هذه الوجبات ، و النهوض بها كما فصلها النظام القرآنـــي ، و عليـــه ألا يقصر في شيء منها ، و قد ورد ذكرها جميعا في القرآن ، و بينتها بيانا شافيا أعمال النبـــي و أصحابه و الذين اتبعوهم بإحسان في بساطة و وضوح ، كل عمل فيها أو عدة أعمال تقوي و تركز أو عدة مبادئ من النظريات السابقة التي جاء هذا النظام لتحقيقها و إفادة الناس بنتائجها و آثارها .

٤- الدولة الإسلامية الأولى

على قواعد هذا النظام الاجتماعي القرآني الفاضل قامت الدولة الإسلامية الأولى تؤمن به إيمانا عميقا و تطبقه تطبيقا دقيقا و تنشره في العالمين ، حتى كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول

: (لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله) و حتى أنه ليقاتل مانعي الزكاة و يعتبرهم مرتدين بهدمهم هذا الركن من أركان النظام و يقول : (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم ما استمسك السيف بيدي) .

و كانت الوحدة بكل معانيها و مظاهرها شمل هذه الأمة الناشئة ، فالوحدة الاجتماعية شاملة بتعميم نظام القرآن و لغة القرآن ، و الوحدة السياسية شاملة في ظل أمير المؤمنين و تحت لواء الخلافة في العاصمة ، و لم يحل دونها أن كانت الفكرة الإسلامية فكرة لا مركزية في الجيوش ، و في بيوت المال ، و في تصرفات الولاة ، إذ أن الجميع يعملون بعقيدة واحدة و بتوجيه عام متحد .

و لقد طردت هذه المبادئ القرآنية الوثنية المخرفة في جزيرة العرب و في بلاد الفرس فقضت عليها ، و طاردت اليهودية الماكرة فحصرتها في نطاق ضيق و قضت على سلطانها الديني و السياسي قضاء تاما ، وصارعت المسيحية حتى انحصر ظلها في قارتي آسيا و أفريقيا و انحازت إلى أوربا في ظل الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية ، و تركز بذلك السلطان الروحي والسياسي بالدولة الإسلامية في القارتين العظيمتين ، و ألحت بالغزو على القارة الثالثة تهاجم القسطنطينية من الشرق وتحاصرها حتى يجهدها الحصار ، و تأتيها من الغرب فتقتحم الأندلس وتصل جنودها المظفرة إلى قلب فرنسا و إلى شمال و جنوب إيطاليا ، و تقيم في غرب أوربا دولة شامخة البنيان مشرقة بالعلم و العرفان ، و يتم لها بعد ذلك فتح القسطنطينية نفسها وحصر المسيحية و حصر المسيحية في هذا الجزء المحدود من قلب أوربا ، وتمخر الأساطيل الإسلامية عباب البحرين الأبيض و الأحمر فيصير كل منهما بحيرة إسلامية ، وتقبض قوات الدولة الإسلامية بذلك على مفاتيح البحار في الشرق والغرب وتتم لها السيادة البرية و البحرية .

وقد اتصلت بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيراً من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعاً ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعاً ، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية .

٥ . عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية

ومع هذه القوة البالغة والسلطان الواسع فإن عوامل التحلل فإن عوامل التحلل قد أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة القرآنية ، وتعظم و تنتشر و تقوى شيئا فشيئا حتى مزقت هذا الكيان وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار ، وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية ، وتركت وراءها في كلتا المرتين أمما مبعثرة و دويلات صغيرة تتوق إلى الوحدة و تتوثب للنهوض .

و كان أهم هذه العوامل :

أ ــ الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ، مع التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك و التزهيد في الإمارة و لفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم و محطمة الشعوب و الدول : (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (لأنفال:٤٦) ، و مع هذه الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده في القول و العمل و التنفير من حب الشهرة و المحمدة .

ب ــ الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة ، وإهمال كتاب الله و سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، و الجمود و التعصب للآراء و الأقوال ، والولع بالجدل والمناظرات و المراء ، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي ، حتى قال الرسول : (ما ضل قوم بعدي على هدى إلا أوتوا الجدل) .

ج ــ الانغماس في ألوان الترف والنعيم ، والإقبال على المتعة والشهوات ، حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم ، مع أنهم يقرءون قول الله تبارك وتعالى :

 (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الإسراء:١٦) .

د ــ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة، والديلم تارة أخرى، والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه ، مع أنهم يقرءون قول الله تبارك و تعالى :

 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (آل عمران:١١٨).

هـ ــ إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون واكتناه أسرار الخلق والسير في الأرض ، ويأمرهم أن يتفكروا في ملكوت الله : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (يونس:١٠١) .

و ــ غرور الحكام بسلطانهم، والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة، وأخذتهم على غرة ، وقد أمرهم القرآن باليقظة و حذرهم من مغبة الغفلة و اعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل :
 (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف:١٧٩).

ز ــ الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم ، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ، مع النهي الشديد عن التشبه بهم و الأمر الصريح بمخالفتهم و المحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد حتى قال القرآن الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) (آل عمران:١٠٠) .
و قال في آية أخرى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ) (آل عمران:١٤٩) .

٦ . صراع سياسي

(أ) **محاولات القضاء على الأمة الإسلامية** : أخذت هذه العوامل تعمل في كيان الدولة الإسلامية و الأمة الإسلامية عملها ، و ظنت الأمم الموتورة أن قد سنحت الفرصة لتأخذ بثأرها

و تقضي على هذه الدولة الإسلامية التي فتحت بلادها من قبل ، و غيرت معالم أوضاعها في كل شؤون الحياة ، فانحدر التتار كالسيل الدافق على الدولة الإسلامية ، و أخذوا يقطعون أشلاءها جزءا جزءا حتى وصلوا إلى بغداد قلب الخلافة العباسية ، و وطئوها بنعالهم في شخص الخليفة المستعصم ، و بذلك تبدد شمل الدولة و انتثر عقد الخلافة لأول مرة و تفرقت الأمم إلى دويلات صغيرة ، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين و منبر ، و تنبهت المسيحية في أوربا و جمعت جموعها و قذفت الشرق المسلم في آسيا و أفريقيا بكتائبها في تسع حملات صليبية اشتملت على خير ما فيها من فرسان و ملوك و عتاد ، و تمكنت هذه القوات الزاحفة من إقامة دولة صليبية في بيت المقدس و تهديد أمم الإسلام في الشرق و الغرب و مهاجمة مصر أقوى هذه الدول إذ ذاك .

(ب) انتصارات متتالية : و لكن الله تبارك و تعالى لم يأذن بعد بانتصار الباطل على الحق ، فاستطاعت مصر أن تجمع حولها فلول بعض هذه الدويلات و تقذف بهم في نحر الصليبيين بقيادة صلاح الدين ، فتستعيد منهم بيت المقدس و تريهم كيف تكون الهزيمة في حطين ، ثم تقف في وجه التتار بقيادة الظاهر بيبرس و تردهم على أعقابهم خاسئين في عين جالوت ، ثم تعيد رسم الخلافة من جديد ، و يريد الله بعد ذلك أن تقوم للإسلام دولة وارفة الظلال قوية البأس شديدة المراس ، تجمع كلمة أهله و تضم تحت لوائها معظم أممه و شعوبه ، و يأبى لها علو الهمة إلا أن تغزو المسيحية في عقر دارها ، فتفتح القسطنطينية و يمتد سلطانها في قلب أوربا حتى يصل إلى فيينا ، تلك هي دولة الأتراك العثمانية .

(ج) بواكير النهضة في أوربا : اطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها و استنامت إليه ، و غفلت عن كل ما يدور حولها ، و لكن أوربا التي اتصلت بأضواء الإسلام غربا بالأندلس و شرقا بالحملات الصليبية ، لم تضع الفرصة و لم تغفل عن الاستفادة بهذه الدروس ، فأخذت تتقوى و تتجمع تحت لواء الفرنجة في بلاد الغال ، واستطاعت بعد ذلك أن تصد تيار الغزو الإسلامي الغربي ، و أن تبث الدسائس بين صفوف مسلمي الأندلس ، و أن تضرب بعضهم ببعض إلى أن قذفت بهم أخيرا إلى ما وراء البحر أو إلى العدوة الأفريقية ، فقامت مقامهم الدولة الإسبانيولية الفتية ، و ما زالت أوربا تتقوى و تتجمع و تفكر و تتعلم ، و تجوب البلاد و تكشف الأقطار ، حتى كان كشف أمريكا عملا من أعمال أسبانيا و كشف طريق الهند عملا من أعمال البرتغال ، و توالت فيها صيحات الإصلاح و نبغ بها كثير من المصلحين و أقبلت على العلم الكوني و المعرفة المنتجة المثمرة ، و انتهت بها هذه الثورات الإصلاحية

إلى تكوين القوميات و تكوين دولة قوية جعلت هدفها جميعا أن تمزق هذه الدول الإسلامية التي قاسمتها أوربا استأثرت دونها بأفريقيا و آسيا ، و تحالفت هذه الدول الفتية على ذلك أحلافا رقت بها إلى درجة القداسة في كثير الأحيان .

(د) **هجوم جديد :** و امتدت الأيدي الأوربية بحكم الكشف و الضرب في الأرض و الرحلة إلى أقصى آفاقها البعيدة ، إلى كثير من بلدان الإسلام كالهند و بعض الولايات الإسلامية المجاورة لها ، و أخذت تعمل في جد للوصول إلى تمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة و أخذت تضع لذلك المشروعات الكثيرة تعبر عنها أحيانا بالمسألة الشرقية ، و أخرى باقتسام تركة الرجل المريض ، و اخذت كل دولة تنتهز الفرصة السانحة و تنتحل الأسباب الواهية ، و تهاجم الدولة الوادعة اللاهية فتنقص بعض أطرافها أو تهد جانبا من كيانها ، و استمرت هذه المهاجمة أمدا طويلا انسلخ فيه عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار الإسلامية ، و وقعت تحت السلطان الأوربي كالمغرب الأقصى و شمال أوربا و استقل فيه كثير من البلاد غير الإسلامية التي كانت تحت سلطان العثمانيين كاليونان و دول البلقان ، و كان الدور الختامي في هذا الصراع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ – ١٩١٨م الذي انتهى بهزيمة تركيا و حلفائها و بذلك سنحت الرصة كاملة لأقوى شعوب أوربا (إنجلترا و فرنسا) و إلى جوارهما (إيطاليا) فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام و شعوبه ، و بسطت سلطانها عليها بأسماء مختلفة من احتلال و استعمار و وصاية و انتداب و تقاسمته على هذا النحو :

١ – أفريقيا الشمالية (مراكش و الجزائر و تونس) مستعمرات فرنسية ، تتخللها منطقة نفوذ دولية في طنجة ، و مستعمرات أسبانية في الريف .

٢ – طرابلس و برقة مستعمرة إيطالية لم تشأ إيطاليا أن تبقي على شيء من آثار الإسلام فيها ، ففرضت عليها التجنس بالجنسية الإيطالية و أسمتها إيطاليا الجنوبية ، و قذفتها بالآلاف من جياع الأسر و ذئاب البشر .

٣ – مصر و السودان تحت الحماية الإنجليزية لا تملك إحداهما لنفسها من أمرها شيئا .

٤ – فلسطين مستعمرة إنجليزية أباحت إنجلترا لنفسها أن تبيعها لليهود لينشئوا فيها الوطن القومي الصهيوني .

٥ – سوريا مستعمرة فرنسية .

٦ – العراق مستعمرة إنجليزية .

٧ – الحجاز حكومة ضعيفة متداعية تنتظر الصدقات و تتشبث بالعهود الزائفة و المواثيق الباطلة .

٨ – اليمن حكومة منزوية و شعب فقير مهدد بالغزو في كل مكان في أي وقت من الأوقات .

٩ – بقية أقسام الجزيرة العربية إمارات صغيرة يعيش أمراؤها في كنف القناصل الإنجليزية و يقاتلون بفتات موائدهم و تشتعل صدورهم بنيران التحاقد و التباغض ، هذا مع الوعود المؤكدة و المواثيق المغلظة التي قطعها الحلفاء لعاهل الجزيرة الملك حسين أن يساعدوه على استقلال العرب و تدعيم سلطان الخلافة العربية .

١٠ – إيران و الأفغان حكومات مضطربة تتوزعها الأطماع من كل مكان فهي تحت كنف هذه الأمة تارة و إلى جانب تلك تارة أخرى .

١١ – الهند مستعمرة إنجليزية .

١٢ – تركستان و ما جاورها مستعمرات روسية يذيقها البلاشفة مر العذاب .

و فيما عدا ذلك فهناك الأقليات الإسلامية المنثورة في كثير من البلدان لا تعرف دولة تلجأ إلى حمايتها ، أو حكومة مسلحة تحتمي بجنسيتها كالمسلمين في الحبشة و الصين و البلقان و بلاد أفريقية الوسطى و الجنوبية و الشرقية و الغربية .

وبهذا الوضع انتصرت أوربا في هذا الصراع السياسي ، و تم لها ما أرادت من تمزيق الإمبراطورية الإسلامية و الذهاب بدولة الإسلام ، و حذفها سياسيا من دائرة الدول الحية العظيمة .

(هـ) إلى القوة من جديد :و لكن هذا العدوان الصارخ و الاستهتار بالعهود و المواثيق أحرج الصدور و أثار النفوس ، فهبت هذه الأمم تطالب باستقلالها و تجاهد لاسترداد حريتها و مجدها ، و اشتعلت فيها الثورات لهذا المعنى ، فثارت تركيا و ثارت مصر و ثارت العراق و سوريا و تكررت الثورات في فلسطين و الريف في بلاد المغرب ، و عمت اليقظة في النفوس كل مكان ، و وصلت شعوب الإسلام بذلك إلى بعض الحقوق ، فاستقلت تركيا في حدودها الجديدة ، و اعتبرت مصر و العراق دولتين مستقلتين ، و قامت في الحجاز و نجد دولة السعوديين ، و حافظت اليمن و إيران و أفغانستان على وضعياتها ، المستقلة ، و قاربت سوريا أن تسلب الاعتراف باستقلالها ، و لفتت فلسطين أنظار العالم إليها بكفاحها ، و خطا المسلمون و لا شك خطوات طيبة و أن كانت قليلة و بطيئة نحو الأهداف الكريمة التي قصدوها من استعادة حريتهم و استرداد مجدهم و بناء دولتهم ، و لئن اتجهت هذه الخطوات إلى المعنى القومي الخاص و طالبت كل أمة بحقها في الحرية كأمة مستقلة ، و تعمد كثير من العاملين لهذه النهضة أن يغفل فكرة الوحدة فإن مصير هذه الخطوات سيكون و لا شك التجمع و عودة الأمة الإسلامية كدولة متحدة تضم شتات شعوب العالم الإسلامي و ترفع راية الإسلام و تحمل دعوته ، فليس في الدنيا أمة يجمعها ما يجمع المسلمون من وحدة اللغة و الاشتراك في المصالح المادية و الروحية و التشابه في الآلام و الآمال .

(و) حرب جديدة:و لقد خرجت الدول الأوربية من الحرب العالمية و بذور الحقد و البغضاء متأثرة في صدور الكثير منها ، و جاء مؤتمر الصلح و معاهداته لطمات قاسية لبعضها و خيبة أمل مؤلمة لكثير منها ، هذا إلى ظهور كثير من الفكر الجديدة ، المبادئ المتعصبة شديدة التعصب ، و لابد أن تنتهي هذه الحال بهذه الأمم إلى خلاف جديد و حرب طاحنة ضروس تبدد شملهم و تمزق وحدتهم و تعيدهم إلى رشدهم و تردهم عن ظلمهم ، و تهب لأمم الإسلام فرصة أخرى تسوي فيها صفوفها و تجمع شملها و تستكمل حريتها و استقلالها و تسترد دولتها و وحدتها تحت لواء أمير المؤمنين :

 (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ) (القصص:٥-٦) .

٧. صراع اجتماعي

حضارة جديدة : إن الأمم الأوربية التي اتصلت بالإسلام و شعوبه في الشرق بالحروب الصليبية ، و في الغرب بمجاورة عرب الأندلس و خالطتهم ، و لم تستفد من هذا الاتصال مجرد الشعور القوي أو التجمع و التوحد السياسي ، و لكنها أفادت إلى جانب ذلك يقظة ذهنية و عقلية كبيرة و اكتسبت علوما و معارف جمة ، و ظهرت فيها نهضة أدبية و علمية واسعة النطاق ، و قامت الكنيسة تناقض هذه الظاهرة الغريبة ، و قامت الكنيسة تناقض هذه الظاهرة الغريبة بكل ما أوتيت من قوة ، و تذيق رجالها من الأدباء و العلماء مر العذاب ، و تعتدي عليهم محاكم التفتيش و تثير ضدهم الدول و الشعوب ، و لكن ذلك كله لم يجدها نفعا و لم تثبت تعاليمها أمام حقائق العلم و كشوفه ، و خرجت النهضة العلمية منتصرة كل الانتصار و تنبهت الدولة بذلك ، فصارعت الكنيسة هي الأخرى حتى صرعتها ، و تخلص بذلك المجتمع الأوربي تخلصا تاما من سلطانها و طارد رجالها إلى المعبد و الأديرة و ألزم البابا الإقامة في الفاتيكان ، و حصر عمل رجال الدين في نطاق ضيق من شؤون الحياة لا يخرجون عنه و لا يتطلعون إلى سواه ، و لم تبق أوربا على المسيحية إلا كتراث تاريخي ، و عامل من عوامل تهذيب البسطاء و الأغرار من دهماء الشعوب ، و وسيلة من وسائل التغلب و الاستعمار و قضاء المآرب السياسية .

و امتد أمام الأوربيين رواق العلم و انفسح مجال الاختراع و الكشف ، و ضعفت الماكينة الإنتاج و وجهت الحياة وجهة صناعية ، و سار ذلك جنبا إلى جنب مع نشأة الدولة القوية و امتداد سلطانها إلى كثير من البلاد و الأقطار ، فأقبلت الدنيا على هذه الأمم الأوربية و جبيت إليها ثمرات كل شيء ، و تدفقت عليها الأموال من كل مكان ، فكان طبيعيا بعد ذلك أن تقوم الحياة الأوربية و الحضارة الأوربية على قاعدة إقصاء الدين عن مظاهر الحياة الاجتماعية و بخاصة الدولة و المحكمة و المدرسة و طغيان النظرية المادية و جعلها المقياس في كل شيء ... و تبعا لذلك صارت مظاهر هذه الحضارة مظاهر مادية بحتة تهدم ما جاءت به الأديان السماوية ،

وتناقض كل المناقضة تلك الأصول التي قررها الإسلام الحنيف، وجعلها أساساً لحضارته التي جمعت بين الروحانية والمادية جميعها، ومن أهم الظواهر التي لازمت المدنية الأوروبية:

١ ــ الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروي والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس: (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (الروم:٧).

٢ ــ الإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، وإشباع شهوتي البطن والفرج، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والمغريات، والإغراق في الموبقات إغراقا يحطم الأجسام والعقول ويقضي على نظام الأسر ويهدم سعادة البيوت: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) (محمد:١٢).

٣ ــ الأثرة في الأفراد ، فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه، وفي الطبقات، فكل طبقة تتعالى على من سواها وتود أن تحظى بالمغانم دونها، وفي الشعوب، فكل أمة تتعصب لجنسها وتنتقص غيرها وتحاول أن تلتهم من هي أضعف منها.

٤ ــ الربا والاعتراف بشرعيته واعتباره قاعدة التعامل، والتفنن في صوره وضروبه وتعميمه بين الدول والأفراد.

وقد أنتجت هذه المظاهر المادية البحتة في المجتمع الأوروبي فساد النفوس، وضعف الأخلاق، والتراخي في محاربة الجرائم ، فكثرت المشكلات ، وظهرت المبادئ الهدامة ، واشتعلت الثورات المخربة المدمرة ، واضطربت النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فلم تستقر على حال، وتمزقت الدول بالطوائف والأحزاب ، وتناحرت الشعوب على المطامع والأحقاد ، وأثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع الإنساني ، وإقرار الطمأنينة والسلام فيه ، وفشلت في إسعاد الناس ، رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة ، وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء، وما مكنت لدولها في الأرض من قوة وسلطان و لما يمض عليها قرن كامل من الزمان .

٨ ـ طغيان المادة على بلاد الإسلام

وقد عمل الأوروبيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية ، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة ، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم ، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم ، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة ، من العلوم والمعارف والصناعات ، والنظم النافعة ، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي ، إحكاماً شديداً ، واستعانوا بدهائهم السياسي ، وسلطانهم العسكري ، حتى تم لهم ما أرادوا. أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم ، وسهّلوا عليهم ذلك وهوّنوه عليهم ، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي ، وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم ، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون ، وأن يستأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة ، والثروات العظيمة ، وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم ، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام .

وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات ، وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهم، ورواياتهم وخيالاتهم ، وعبثهم ومجونهم ، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم ، وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة ، التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور ، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء ، وذوي الرأي فيهم ، وأهل المكان والسلطان .

ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفاً عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب، ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الموضعية، فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف .

و تغالت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهذه الحضارة الأوربية و التبرم بصبغتها الإسلامية ، حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية و تبعت الأوربيين بعنف قاس في كل ما يصنعون ، و حاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان فطاحت تلك المحاولة بعرشه ، و ازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد و استفحلت حتى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه لا سبيل إلا الترقي إلا بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها و شرها و حلوها و مرها و ما يحب منها و ما يكره و ما يحمد منها و ما يعاب ، و أخذت تنتقل في سرعة و قوة من مصر إلى ما جاورها من البلاد حتى وصلت إلى أقصى المغرب ، و طوفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز .

ونستطيع أن نقسم البلاد الإسلامية بحسب تأثرها بهذه الحضارة المادية و طغيان مادتها عليها إلى ثلاثة أقسام :

١ – بلاد بلغ هذا التأثر مبلغا عظيما يصل إلى القلوب و المشاعر ، كما غير الأوضاع و المظاهر ، و من هذه البلاد تركيا و مصر ، فقد انحسر ظل الفكرة الإسلامية في هذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعية ، و طوردت الفكرة الإسلامية لتقبع في المساجد و الزوايا و الربط و التكايا .

٢ – بلاد تأثرت بهذه الحضارة في أوضاعها و مظاهرها الرسمية ، و لكنها لم تتغلب فيها على المشاعر القلبية كإيران و بلاد المغرب و شمال أفريقيا .

٣ – بلاد لم تتأثر بهذه الحضارة فيها إلا طبقة خاصة من المثقفين و الحكام دون العامة و الدهماء كسوريا و العراق و الحجاز و كثير من أجزاء الجزيرة العربية و بقية ممالك الإسلام .

و مع هذا فالموجة تمتد بسرعة البرق لتصل إلى ما لم تصل إليه بعد من النفوس و الطبقات و الأوضاع .

ولقد استطاع خصوم الإسلام أن يخدعوا عقلاء المسلمين وأن يضعوا ستاراً كثيفاً أمام أعين الغير منهم، بتصوير الإسلام نفسه تصويراً قاصراً في ضروب من العقائد والعبادات والأخلاق، إلى جانب مجموعة من الطقوس والخرافات والمظاهر الجوفاء، وأعانهم على هذه الخديعة: جهل المسلمين بحقيقة دينهم، حتى استراح كثير منهم إلى هذا التصوير واطمأنوا إليه ورضوا به، وطال عليهم في ذلك الأمد، حتى صار من العسير أن نفهم أحدهم أن الإسلام نظام اجتماعي كامل يتناول كل شؤون الحياة.

نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن الحضارة الغربية بمبادئها المادية، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معاً في أرض الإسلام نفسه، وفي حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين، وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري، و لا عجب في هذا، فإن مظاهر الحياة لا تتجزأ، والقوة قوة فيها جميعاً، والضعف ضعف فيها جميعاً كذلك: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران:١٤٠) ، وإن كان مبادئ الإسلام وتعاليمه ظلت قوية في ذاتها فياضة بالخصب والحياة، جذابة أخاذة بروعتها وجمالها، وستظل كذلك، لأنها الحق ولن تقوم الحياة الإنسانية كاملة فاضلة بغيرها، ولأنها من صنع الله وفي حياطته: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:٩) ، (وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (التوبة:٣٢) .

يقظة: و كما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره في انتعاش الفكرة الإسلامية ، فارتفعت الأصوات من كل مكان تطالب بالرجوع إلى الإسلام و تفهم أحكامه و تطبيق نظامه ، و لابد أن يأتي قريبا ذلك اليوم الذي تندك فيه صروح هذه المدنية المادية على رؤوس أهلها ، و حينئذ يشعرون بسعير الجوع الروحي تشتعل به قلوبهم و أرواحهم و لا يجدون الغذاء و الشفاء و الدواء إلا في تعاليم هذا الكتاب الكريم :

 (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس:٥٧-٥٨).

٩ . دعوتنا دعوة للبعث والإنقاذ

(أ) تركة مثقلة : وهكذا أيها الإخوان أراد الله أن نرث هذه التركة المثقلة بالتبعات ، وأن يشرق نور دعوتكم في ثنايا هذه الظلام وأن يهيئكم الله لإعلاء كلمته وإظهار شريعته وإقامة دولته من جديد : ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز .

(ب) أهدافنا العامة : ماذا نريد أيها الإخوان ؟ أنريد جمع المال وهو ظل زائل ؟ أم سعة الجاه وهو عرض حائل ؟ أم نريد الجبروت في الأرض : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الأعراف . ونحن نقرأ قول الله تبارك وتعالي (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:٨٣).

شهد الله أننا لا نريد شيئاً من هذا وما لهذا عملنا ولا إليه دعونا ، ولكن اذكروا دائما أن لكم هدفين أساسيين :

١ - أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي وذلك حق طبيعي لكل إنسان ، لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر .

٢ - أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه

الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة الناس ، وما لم تقم هـذه الدولـة فـإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعـودهم عن إيجادهم . ومن العقوق للإنسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دولة تهتف بالمبادئ الظالمة وتنادي بالدعوات الغاشمة ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولـة الحـق والعدالـة والسلام .

نريد تحقيق هذين الهدفين في وادي النيل وفي بلاد العروبة وفي كل أرض أسعدها الله بعقيدة الإسلام : دين وجنسية وعقيدة توحد بين جميع المسلمين .

(ج) أهدافنا الخاصة : ولنا بعد هذين الهدفين أهداف خاصـة لا يـصير المجتمـع إسلامياً كاملاً إلا بتحقيقها . فاذكروا أيها الإخوان أن أكثر من ٦٠% من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان ، ولا يحصلون علي القوت إلا بشق النفس ، وأن مصر مهددة بمجاعة قاتلة ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية التي لا يعلم نتيجتها إلا الله ، وأن مصر بها أكثر من ٢٣٠ شركة أجنبية تحتكر كل المرافق العامة وكل المنافع الهامة في جميع أنحاء الـبلاد ، وأن دولاب التجارة والصناعة والمنشآت الاقتصادية كلها في أيدي الأجانب المرابين ، وأن الثـروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء ، وأن مصر أكثر بلاد العـالم المتمدين أمراضاً وأوبئة وعاهات ، وان أكثر من ٩٠% من الشعب المصري مهـدد بـضعف البنية وفقد الحواس ومختلف العلل و الأمراض ، وأن مصر لا زالت إلى الآن جاهلة لم يـصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس بما في ذلك أكثر من مائة ألف شخص لا يتجاوز تعليمهم برامج مدارس الإلزام ، وأن الجرائم تتضاعف في مصر وتتكاثر بدرجة هائلة حتى أن السجون لتخرج

أكثر مما تخرج المدارس ، وأن مصر لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات ، وأن هذه المعاني والصور تتراءى في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ، فمن أهدافكم أن تعملوا لإصلاح التعليم ومحاربة الفقر والجهل والمرض والجريمة وتكوين مجتمع نموذجي أن ينتسب إلى شريعة الإسلام.

(د) وسائلنا العامة : كيف نصل إلى هذه الأهداف ؟ إن الخطب والأموال والمكاتبات والدروس والمحاضرات وتشخيص الداء ووصف الدواء كل ذلك وحده لا يجدي نفعاً ولا يحقق غاية ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف ؛ ولكن للدعوات وسائل لا بد من الأخذ بها والعمل لها . والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة :

١ – الإيمان العميق .

٢ – التكوين الدقيق .

٣ – العمل المتواصل .

وتلك هي وسائلكم العامة أيها الإخوان فآمنوا بفكرتكم وتجمعوا حولها واعملوا لها واثبتوا عليها .

(هـ) وسائل إضافية : وقد تكون إلى جانب هذه الوسائل العامة وسائل إضافية لا بد من الأخذ بها وسلوك سبيلها ، منها السلبي ومنها الإيجابي ، ومنها ما يتفق مع عرف الناس ومنها ما يخرج علي هذا العرف ويخالفه ويناقضه ، ومنها ما فيه لين ومنها ما فيه شدة ، ولا بد

أن نروض أنفسنا علي تحمل ذلك كله و الإعداد لهذا كله حتى نضمن النجاح . قد يطلب إلينا أن نخالف عادات ومألوفات وأن نخرج علي نظم وأوضاع ألفها الناس وتعارفوا عليها ، وليست الدعوة في حقيقة أمرها إلا خروجاً علي المألوفات وتغييراً للعادات والأوضاع ، فهل أنتم مستعدون لذلك أيها الإخوان ؟

(و) تثبيط : وسيقول كثير من الناس : وماذا تعني هذه الوسائل ؟ وما عساها أن تنفع في بناء أمة وترميم مجتمع هذه المشكلات المزمنة ومع استقرار الحال علي هذه المفاسد المتعددة ؟ وكيف تعالجون الاقتصاد علي غير أساس الربا ؟ وكيف تصنعون في قضية المرأة ؟ وكيف تنالون حقكم بغير قوة ؟ فاعلموا أيها الإخوان أن وساوس الشيطان يلقيها في أمنية كل مصلح فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم واذكروا لهؤلاء جميعاً أن التاريخ يقص علينا من نبأ الأمم الماضية والحاضرة ما فيه عظة وعبرة . والأمة التي تصمم علي الحياة لا يمكن أن تموت .

(ز) العقبات في طريقنا : أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلتقي منهم خصومه شديدة وعداوة قاسية ، و ستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات ، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . أما الآن فلا زلتم مجهولين تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم ، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف في

وجهكم كل الحكومات علي السواء ، وستحاول كل حكومة أن تجد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم .

وسيتذرع الغاصبون بكل طرق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان . وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات ، وسيحاولون أن يبصقوا بها كل نقيصة ، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة ، معتمدين علي قوتهم وسلطانهم ، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم : (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (التوبة:٣٢) . وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان ، فستجنون وتعتقلون ، وتنقلون وتشردون ، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدي هذا الامتحان : (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت:٢) . ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..... فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) (الصف:١٠-١٤) .

فهل أنتم مصرون علي أن تكونوا أنصار الله ؟

(م) عوامل النجاح : ومن الحق أيها الأخوان أن نذكر أمام هذه العقبات جميعاً أننا ندعو بدعوة الله وهي أسمي الدعوات ، وننادي بفكرة الإسلام وهي أقوي الفكر ، ونقدم للناس شريعة القرآن وهي أعدل الشرائع ، (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) (البقرة:١٣٨) ، وأن العالم كله في حاجة إلى هذه الدعوة وكل ما فيه يمهد لها و يهيئ سبيلها ، وأننا بحمد الله براء

من المطامع الشخصية بعيدون عن المنافع الذاتية ، ولا نقصد إلا وجه الله وخير الناس ولا نعمل إلا ابتغاء مرضاته ، وإننا نترقب تأييد الله ونصره الله فلا غالب له : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) (محمد:١١) . فقوة دعوتنا وحاجة إليها ونبالة مقصدنا وتأييد الله إيانا هي عوامل النجاح التي لا تثبت أمامها عقبة ولا يقف في طريقها عائق : (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف:٢١) .

١٠.وصيـة

أيها الإخوان المسلمون ، اسمعوا :

أردت بهذه الكلمات أن أضع فكرتكم أمام أنظاركم فلعل ساعات عصيبة تنتظرنا يحال فيها بيني وبينكم إلي حين ؛ فلا أستطيع أن أتحدث معكم أو أكتب إليكم ، فأوصيكم أن تتدبروا هذه الكلمات وأن تحفظوها إذا استطعتم وأن تجتمعوا عليها ، وإن تحت كل كلمة لمعاني جمة.

أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ، ونور جديد يشرق فيسدد ظلام المادة بمعرفة الله ، وصوت داو يعلو مردداً دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلي عنه الناس .

إذا قيل إلام لكم تدعون ؟ ... فقولوا ندعو إلي الإسلام الذي جاء به محمد صلي الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه ، فإن قيل لكم هذه سياسة ! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام .

وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة ، فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به ، فإن ثـــرتم علينـــا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين . وإن قيل لكم إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا : (آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) (غافر:٨٤) ، فإن لجّوا في عدوانهم فقولوا : (سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَـــاهِلِينَ) (القصص:٥٥) .

واجبات

أيها الإخوان ..

ــ آمنوا بالله واعتزوا بمعرفته والاعتماد عليه والاستناد إليه ، فلا تخافوا غيـــره ولا ترهبـــوا سواه. وأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه .

ــ وتخلقوا بالفضائل وتمسكوا بالكمالات . وكونوا أقوياء بأخلاقكم أعزاء بما وهب الله لكم من عزة المؤمنين وكرامة الاتقاء الصالحين .

ــ وأقبلوا علي القرآن تتدارسونه ، وعلي السيرة المطهرة تتـــذاكرونها ، وكونـــوا عمليـــين لا جدليين ؛ فإذا هدي الله قوما ألهمهم العمل ؛ وما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل.

ــ وتحابوا فيما بينكم ، واحرصوا كل الحرص علي رابطتكم فهي سر قوتكم وعماد نجاحكم ، واثبتوا حتى يفتح الله بينكم وبين قومكم بالحق وهو خير الفاتحين .

ـ واسمعوا وأطيعوا لقيادتكم في العسر واليسر والمنشط والمكره ، فهي رمز فكـرتكم وحلقـة الاتصال فيما بينكم .

ـ وترقبوا بعد ذلك نصر الله وتأييده . والفرصة آتية لا ريب فيهـا ، (وَيَوْمَئِـذٍ يَفْـرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الروم:٤-٥) .

وفقنا الله وإياكم لما يحبه و يرضاه ، وسلك بنا وبكم مسالك الأخيار المهتدين ، وأحيانـاً حيـاة الأعزاء السعداء وأماتنا موت المجاهدين والشهداء إنه نعم المولي ونعم النصير .

رسالة المؤتمر الخامس

مقدمة

بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيـمِ

أيها الإخوان :

كنت أود أن نظل دائما نعمل ولا نتكلم ، وأن نكل الأعمال وحدها الحـديث عـن الإخـوان وخطوات الإخوان ، وكنت أحب أن تتصل خطواتكم اللاحقة بخطواتكم السابقة فـي هـدوء وسكون من غير هذا الفاصل الذي نحدد به جهاد عشر سنوات مضت لنستأنف مرحلة أخرى من مراحل الجهاد الدائب في سبيل تحقيق فكرتنا السامية .

ولكنكم أردتم هذا ، وأحببتم أن تسعدونا بهذا الاجتماع الشامل فشكرا لكم ، و لا بأس أن ننتهز هذه الفرصة الكريمة فنستعرض نتائجنا ، ونراجع فهرس أعمالنا ، ونـستوثق مـن مراحـل طريقنا ونحدد الغاية والوسيلة فتتضح الفكرة المبهمة ، و تصحح النظرة الخاطئـة ، و تعلـم الخطوة المجهولة ، وتتم الحلقة المفقودة ، ويعرف الناس الإخوان المسلمين على حقيقة دعوتهم ، من غير لبس ولا غموض .

لا بأس بهذا ، ولا بأس بأن يتقدم إلينا من وصلته هذه الدعوة و من سمع أو قرا هذا البيـــان ، برأيه في غايتنا و وسيلتنا و خطواتنا فنأخذ الصالح من رأيه ، و ننزل على الحق من مشورته ، فإن الدين النصيحة لله و لرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

أيها الإخوان :

أجدني في غنى عن تحيتكم و شكركم ، وعن وصف ما يغمرني من السعادة بمـــوقفي هـــذا بينكم ، ومن السرور و الفرح بلقائكم و من الأمل العظيم بمؤازرتكم و توفيق الله إياكم .

أجدني في غنى عن بيان هذا كله بهذا الفيض من العواطف النبيلة الذي يغمر ج هذا الاجتماع ، فكان كل ما فيه ينطق بالحب العميق والارتباط الوثيق و الأخوة الصادقة و التعاون المكين ، ووفقكم الله لخير ما يحب ويرضى .

الإخوان فكرة في نفوس أربعة

أيها الإخوان الكرام :

طالعت كثيرا و جربت كثيرا و خالطت أوساطا كثيرة و شهدت حوادث عدة ، فخرجت مـــن هذه السياحة القصيرة المدى الطويلة المراحل بعقيدة ثابتة لا تتزلزل ، هي أن :

السعادة التي ينشدها الناس جميعا إنما تفيض عليهم من نفوسهم و قلوبهم ، و لا تـــأتيهم مـــن خارج هذه القلوب أبدا ، و أن الشقاء الذي يحيط بهم و يهربون منه إنما يصيبهم بهذه النفوس و القلوب كذلك ، و إن القرآن الكريم يؤيد هذا المعنى و يوضحه ، ذلـــك قـــول الله تعـــالى :

 (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:١١) .

و ما رأيت كلاهما أعمق في فلسفة الاجتماع من قول ذلك :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها و لكن أخلاق الرجال تضيق

اعتقدت هذا و اعتقدت إلى جانبه أنه ليست هناك نظم و لا تعاليم تكفل سعادة هـــذه النفـــوس البشرية و تهدي الناس إلى الطرق لهذه السعادة كتعاليم الإسلام الحنيف الفطرية الواضحة ، و ليس هنا مجال تفصيل هذه التعاليم هذه التعاليم ، و لا مجال التدليل على أنها تتـــضمن هـــذه النتيجة ، و تكفل سعادة البشرية جميعا فلذلك مجال آخر ، فضلا عن أننا كلنـــا فيمـــا أعتقـــد

شركاء في التسليم بصحة هذه النظرية ، على أن كثيرا من غير المسلمين يقر بها و يعترف بما في الإسلام من جمال و كمال .

و لهذا وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي إرشاد الناس إلى الإسلام حقيقة و عملا ، و لهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين إسلامية بحتة في غايتها و في وسائلها ، لا تتصل بغير الإسلام ي شيء .

ظلت هذه الخواطر حديثا نفسانيا ومناجاة روحية بها في نفسي لنفسي ، و قد أفضي بها إلى كثير ممن حولي ، و قد تظهر في شكل دعة فردية أو خطابة وعظية أو درس في المساجد إذا سنحت فرصة التدريس ، أو حث لبعض الأصدقاء و العلماء على بذل الهمة و مضاعفة المجهود ، في إنقاذ الناس و إرشادهم إلى ما في الإسلام من خير .

ثم كانت في مصر و غيرها من بلدان العالم الإسلامي حوادث عدة ألهبت نفسي و أهابت كوامن في قلبي ، و لفتت نظري إلى وجوب الجد و العمل ، و سلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، و التأسيس بعد التدريس ، و لا أطيل عليكم بتفصيل حوادث انتهى أمرها و عفت آثارها ، و فاء إلى الرشد أو بعض الرشد أصحابها .

و لقد أخذت أفاتح كثيرا من كبار القوم في وجوب النهوض و العمل و سلوك طريق الجد و التكوين ، فكنت أجد التثبيط أحيانا و التشجيع أحيانا و التريث أحيانا ، و لكني لم أجد ما أريد من الاهتمام بتنظيم الجهود العملية ، و من الوفاء أذكر في هذا المقام المرحوم أحمد باشا تيمور أفسح الله له في جنته ، فما رأيته إلا مثالا للهمة المتوثبة و الغيرة المتوقدة ، و ما تحدثت إليه في شأن من شؤون الأمة العامة إلا وجدت العقل الكامل و الاستعداد التام و الإلمام الشامل و ترقب ساعة العمل ، فرحمه الله و أجزل مثوبته .

و ليت وجهي شطر الأصدقاء و الإخوان ممن جمعني و إياهم عهد الطلب و صدق الود و الشعور بالواجب ، فوجدت استعدادا حسنا ، و كان أسرعهم إلى مشاركتي عبء التفكير و أكثرهم اقتناعا بوجوب العمل في إسراع و همة ، الإخوان الفضلاء : أحمد أفندي السكري ، و الأخ المفضال المرحوم الشيخ حامد عسكرية اسكنه الله فسيح جنته ، و الأخ الشيخ أحمد عبد الحميد وكثير غيرهم .

و كان عهد و كان موثق أن يعمل كل منا لهذه الغاية ، حتى يتحول العرف العام في الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة .

ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة ، وما وصلت إليه في

مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء ، وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة و الخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهي و يترددون على أندية الفساد و الإتلاف ، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة قال لك : أقتل الوقت ، و ما دري هذه المسكين أن من يقتل وقته إنما يقتل نفسه ، فإنما الوقت هو الحياة .

كنا نعجب لهؤلاء الناس و كثير منهم من المثقفين ، و من هم أولى منا بحمل هذا العبء ، ثم يقول بعضنا لبعض : أليس هذا داء من أدواء الأمة و لعله أخطرها ، ألاّ تفكر في مرضها و ألاّ تعمل لعلاج نفسها .

و لهذا و أمثاله نعمل و لإصلاح هذا الفساد ، وقفنا أنفسنا فنتعزى و نحمد الله على أن جعلنا من الداعين إليه العاملين لدينه .

و عمل الزمن عمله فتفرقنا نحن الأربعة فكان أحمد أفندي السكري بالمحمودية ، و كان المرحوم الشيخ حامد عسكرية بالزقازيق ، و كان الشيخ أحمد عبد الحميد بكفر الدوار ، و كنت بالإسماعيلية أذكر قول الشاعر :

بالشام أهلي و بغداد الهوى و أنا بالرقمتين و بالفسطاط جيراني

و في الإسماعيلية أيها الإخوان وضعت أول نواة تكوينية للفكرة ، و ظهرت أول هيئة متواضعة نعمل و نحمل لوائها نعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها تحت اسم (الإخوان المسلمون) و كان ذلك في ذي القعدة سنة ١٣٤٧ هـ .

إسلام الإخوان المسلمين

و اسمحوا لي إخواني استخدام هذا التعبير ، و لست أعني به أن للإخوان المسلمين إسلاما جديدا غير الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه ، و إنما أعني أن كثيرا من المسلمين في كثير من المسلمين في كثير من العصور خلعوا عن الإسلام نعوتا و أوصافا و رسوما من عند أنفسهم ، و استخدموا مرونته و سعته استخداما ضارا مع أنها لم تكن إلا للحكمة السامية ، فاختلفوا في معنى الإسلام اختلافا ، و انطبعت للإسلام في نفس أبنائه صور عدة تقرب أو تبعد أو تنطبق على الإسلام الأول الذي مثله رسول الله و أصحابه خير تمثيل .

فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئا غير حدود العبادة الظاهرة فإن أداها أو رأى من يؤديها اطمأن إلى ذلك و رضي به و حسبه قد وصل على لب الإسلام ، و ذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين .

و من الناس من يرى الإسلام إلا الخلق الفاضل و الروحانية الفياضة ، و الغذاء الفلسفي الشهي للعقل و الروح ، و البعد بهما عن أدران المادة الطاغية الظالمة .

و منهم من يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعاني الحيوية العملية في الإسلام فلا يتطلب النظر إلى غيرها و لا يعجبه التفكير في سواها .

و منهم من يرى الإسلام نوع من العقائد الموروثة و الأعمال التقليدية التي لا غناء فيها و لا تقدم معها ، فهو متبرم بالإسلام و بكل ما يتصل بالإسلام ، و تجد هذا المعنى واضحا في

نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية و لم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئا أصلا ، أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة من لـــم يحـــسنوا تمثيله من المسلمين .

و تحت هذه الأقسام جميعا تندرج أقسام أخرى يختلف نظر كل منها إلى الإسلام عـــن نظـــر الآخر قليلا أو كثيرا ، وقليل من الناس أدرك الإسلام صورة كاملة واضحة تنتظم هذه المعاني جميعا .

هذه الصور المتعددة للإسلام الواحد في نفوس الناس جعلتهم يختلفون اختلافا بينا فـــي فهـــم الإخوان المسلمون وتصور فكرتهم .

فمن الناس من يتصور الإخوان المسلمون جماعة وعظية إرشادية كل همها أن تقدم للنـــاس العظات فتزهدهم في الدنيا و تذكرهم بالآخرة .

و منهم من يتصور الإخوان المسلمين طريقة صوفية تعني بتعليم الناس ضروب الذكر و فنون العبادة و فنون العبادة و ما يتبع ذلك من تجرد و زهادة .

و منهم من يظنهم جماعة نظرية فقهية كل نظرهم أن تقف عند طائفة من الإحكام تجادل فيها و تناضل عنها ، و تحمل الناس عليها و تخاصم أو تسالم من لم يسلم بها معها .

و قليل من الناس خالطوا الإخوان المسلمين و امتزجوا بهم و لم يقفوا عند حدود السماع و لم يخلعوا على الإخوان المسلمين إسلاما يتصورنه هم ، فعرفوا حقيقتهم و أدركوا كل شيء عن دعوتهم علما وعملا ، وهذا أحببت أن أتحدث لحضراتكم عن معنى الإسلام و صورته الماثلة في نفوس الإخوان ، المسلمين ، حتى يكون الأساس الذي ندعو إليه و نعتز بالانتساب لـــه و الاستمداد منه واضحا جليا .

(١) نحن نعتقد أن أحكام الإسلام و تعاليمه شاملة تنتظم شؤون الناس في الدنيا و الآخرة ، و أن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئو نفي هذا الظن ، فالإسلام عقيدة و عبادة ، و وطن و جنسية ، و دين ودولة ، ، و روحانية و عمل ، و مصحف و سيف ، و القرآن الكريم ينطق بذلك كله و يعتبره من لب الإسلام و من صميمه و يوصي بالإحسان فيه جميعه ، و إلى هذا تشير الآية الكريمة :

 (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) (القصص:٧٧)

و إنك لتقرأ في القرآن و في الصلاة إن شئت قول الله تبارك و تعالي في العقيدة و العبادة :

 (وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (البينة:٥) .

وتقرأ قوله تعالى في الحكم والقضاء و السياسة : (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥)

و تقرأ قوله تعالى في الدين و التجارة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ

اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) (البقرة:٢٨٢)

و تقرا قوله تعالى في الجهاد و القتال و الغزو : (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) (النساء:١٠٢)

و إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البارعة في هذه الأغراض نفسها و في غيرها من الآداب العامة و شؤون الاجتماع .

و هكذا اتصل الإخوان بكل بكتاب الله و استلهموه و استرشدوه فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلي الشامل ، وأنه يجب أن يهيمن على كل شؤون الحياة و أن تصطبغ جميعها به و أن تنزل على حكمه ، وأن تساير قواعده و تعاليمه و تستمد منها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاما صحيحا ، أما إذا أسلمت في عباداتها و قلدت غير المسلمين في بقية شؤونها ، فهي أمة ناقصة الإسلام تضاهئ الذين قال تعالى فيهم : (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:٨٥)

(٢) إلى جانب هذا يعتقد الإخوان المسلمون أن أساس التعاليم الإسلامية معينها هو كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم ، اللذان إن تمسكت بهما فلن تضل أبدا ، و أن كثيرا

من الآراء و العلوم التي اتصلت بالإسلام و تلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجـدتها و الشعوب التي عاصرتها ، و لهذا يجب أن تستقي النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة مـن هذا المعين الصافي معين السهولة الأولى ، و أن نفهم الإسلام كما كان يفهمـه الـصحابة و التابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم ، و أن نقف عند هذه الحدود الربانية النبويـة حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به ، و لا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معنا.

(٣) و إلى جانب هذا أيضا يعتقد الإخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام انتظم كل شؤون الحياة في كل الشعوب و الأمم لكل الأعصار و الأزمان ، جاء أكمل و أسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة و خصوصا في الأمور الدنيوية البحتة ، فهو إنما يضع القواعد الكلية في كل شأن من هذه الشؤون ، و يرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها و الـسير فـي حدودها .

و لضمان حق الصواب في هذا التطبيق أو تحريهما على الأقل ، عني الإسلام عنايـة تامـة بعلاج النفس الإنسانية و هي مصدر النظم و مادة التفكير و التصوير و التشكل ، فوصف لها من الأدوية الناجعة ما يطهرها من الهوى و يغسلها من أضرار الغرض و الغاية و يهديها إلى الكمال و الفضيلة ، و يزجرها عن الجور القصور العدوان ، و إذا استقامت النفس و صفت فقد أصبحت كل ما يصدر عنها صالحا جميلا ، يقولون إن العدل ليس في نص القانون و لكنه في نفس القاضي ، و قد تأتي بالقانون الكامل العادل إلى القاضي ذي الهوى و الغاية فيطبقـه تطبيقا جائرا لا عدل معه ، و قد تأتي بالقانون الناقص و الجائر إلى القاضي الفاضل العـادل البعيد عن الأهواء و الغايات فيطبقه تطبيقا فاضلا عادلا فيه كل الخير و البـر و الرحمـة و

الإنصاف و من هنا كانت النفس الإنسانية محل عناية كبرى في كتاب الله ، و كانت النفــوس الأولى التي صاغها هذا الإسلام مثال الكمال الإنساني ، و لهذا كله كانت طبيعة الإسلام تساير العصور و الأمم ، و تتسع لكل الأغراض و المطالب ، و لهذا أيضا كان الإسلام لا يأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية و أصوله العامة .

لا أحب أيها أن استرسل في هذا البيان فذلك باب و اسع و حسبنا هذه الإلمامة الموجزة تلقــي ضوءا على هذا المعنى للفكرة الإسلامية في نفوس الإخوان المسلمين .

الإخوان فكرة إصلاحية شاملة

كان من نتيجة هذا الفهم العام الشامل للإسلام عند الإخوان المسلمين أن شملت فكــرتهم كــل نواحي الإصلاح في الأمة ، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإصلاحية ، وأصــبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته ، والتقت عندها آمال محبي الإصلاح الذين عرفوها وفهموا مراميها ، وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك ، إن الإخوان المسلمين :

(١) دعوة سلفية : لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتــاب الله وسنة رسوله.

(٢) وطريقة سنية : لأنهم يحملون أنفسهم علي العمل بالسنة المطهرة في كل شــيء ، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

(٣) وحقيقة صوفية : لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ، ونقــاء القلــب ،

والمواظبة علي العمل ، و الإعراض عن الخلق ، والحب في الله ، والارتباط علي الخير .

(٤) وهيئة سياسية : لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج ، وتربية الشعب علي العزة والكرامة والحرص علي قوميته إلي أبعد حد .

(٥) وجماعة رياضية : لأنهم يعنون بجسومهم ، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، وأن النبي صلي الله عليه وسلم يقول : (إن لبدنك عليك حقاً) و إن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدي كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي ، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح في طلب الرزق ، ولأنهم تبعاً لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع وربما فاقت كثيراً من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها .

(٦) ورابطة علمية ثقافية : لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة ، ولأن أندية الأخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح .

(٧) وشركة اقتصادية : لأن الإسلام يعني بتدبير المال و كسبه من وجهه وهو الذي يقول نبيه صلي الله عليه وسلم : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) ويقول : (من أمسي كالاً من عمل يده أمسي مغفوراً له) ، (إن الله يحب المؤمن المحترف)

(٨) وفكرة اجتماعية : لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي ويحاولون الوصول إلي طرق علاجها وشفاء الأمة منها .

وهكذا نري أن شمول معني الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولاً لكل مناحي الإصـــلاح ، ووجـــه نشاط الإخوان إلي كل هذه النواحي ، وهم في الوقت الذي يتجه فيه غيرهم إلي ناحية واحـــدة دون غيرها يتجهون إليها جميعاً ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعاً .

ومن هنا كان كثير من مظاهر أعمال الإخوان يبدو أمام الناس متناقضاً وما هو بمتناقض .

فقد يري الناس الأخ المسلم في المحراب خاشعاً متبتلاً يبكي ويتذلل ، وبعد قليل ســـكون هـــو بعينه واعظاً مدرساً يقرع الآذان بزواخر الوعظ ، وبعد قليل تراه نفسه رياضياً أنيقاً يرمـــي بالكرة أو يدرب علي العدو أو يمارس السباحة ، وبعد فترة يكون هو بعينه فـــي متجـــره أو معمله يزاول صناعته في أمانة وفي إخلاص . هذه مظاهر قد يراها الناس متنافرة لا يلتـــئم بعضها ببعض ، ولو علموا أنها جميعاً يجمعها الإسلام ويأمر بها الإســـلام ويحـــض عليهـــا الإسلام لتحققوا فيها مظاهر الالتئام ومعاني الانسجام ، ومع هذا الشمول فقد اجتنب الإخـــوان كل ما يؤخذ علي هذه النواحي من المآخذ ومواطن النقد والتقصير.

كما اجتنبوا التعصب للألقاب إذ جمعهم الإسلام الجامع حـــول لقـــب واحـــد هـــو الإخـــوان المسلمون.

خصائص دعوة الإخوان

لعل من صنع الله لدعوة الإخوان المسلمين أن تنبت بالإسماعيلية ، و أن يكون ذلك على أثـــر خلاف فقهي بين الأهلين و انقسام دام سنوات حول بعض النقاط الفرعية التي أذكى نار الفرقة فيها ذوو المطامع و الأغراض ، و أن تصادف نشأتها عهد الصراع القـــوي العنيـــف بـــين

الأجنبي المتعصب و الوطني المجاهد ، فكان من أثر هذه الظروف أن تميزت هـذه الـدعوة بخصائص خالفت فيها كثيرا من الدعوات التي عاصرتها .

و من هذه الخصائص :

(١) البعد عن مواطن الخلاف

(٢) البعد عن هيمنة الأعيان و الكبراء

(٣) البعد عن الأحزاب و الهيئات

(٤) العناية بالتكوين و التدرج في الخطوات

(٥) إيثار الناحية العملية الإنتاجية على الدعاية والإعلانات

(٦) وشدة الإقبال من الشباب

(٧) و سرعة الانتشار في القرى و المدن

١ – البعد عن مواطن الخلاف

فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهي فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف في الفرعيـات أمـر ضروري لابد منه، إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول و الأفهام ، لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ومازال كذلك، وسيظل إلـى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك ــ رضي الله عنه ــ حين قال لأبي جعفـر وقـد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: "إن أصحاب رسول الله ص تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة"، وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعـصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم، هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعـت القلـوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلماً كمـا قال زيد ــ رضي الله عنه ــ وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أن تنشر فكرة في بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها .

٢ – البعد عن هيمنة الكبراء و الأعيان :

و أما البعد عن هيمنة الكبراء و الأعيان فلانصرافهم عن هذه الدعوات الناشئة المجردة من الغايات و الأهواء إلى الدعوات القائمة ، التي تستتبع المغانم و تجر المنافع و لو في ظن الناس لا في حقيقة الحال ، و لأننا معشر القائمين بدعوة الإخوان تعمدنا هذا ، لأول عهد الدعوة بالظهور ، حتى لا يطمس لونها الصافي لون آخر من ألوان الدعوات التي يروج لها هؤلاء الكبراء ، و حتى لا يحاول أحد منهم أن يستغلها أو يوجهها في غير الغاية التي تقصد إليها ، و ذلك إلى أن كثير من العظماء ينقصه الكمال الإسلامي الذي يجب أن يتصف به المسلم العادي فضلا عن المسلم العظيم الذي يحمل اسم دعوة إسلامية لإرشاد الناس ، و على هذا فقد ظل هذا الصنف بعيدا عن الإخوان اللهم إلا قليلا من الأكرمين الفضلاء ، يفهم فكرتهم و يعطف على غايتهم و يشارك في أعمالهم و يتمنى لهم التوفيق و النجاح .

٣ – البعد عن الهيئات و الأحزاب

وأما البعد عن الاتصال بالأحزاب و الهيئات فلما كان و لا يزال بين هذه الهيئات من التنافر و التناحر الذي لا يتفق مع أخوة الإسلام ، و دعوة الإسلام عامة تجمع و لا تفرق و لا ينهض بها و لا يعمل لها إلا من تجرد من كل ألوانه و صار لله خالصا ، و قد كان هذا المعنى من قبل عسيرا على النفوس الطامحة ، التي تريد أن تصل عن طريق حزبيتها أو جماعتها إلى ما تريد من جاه و مال ، لهذا آثرنا أن نتجنب الجميع و أن نصبر على الحرمان من كثير من العناصر الصالحة حتى ينكشف الغطاء ، و يدرك الناس بعض الحقائق المستورة عنهم فيعودوا إلى الخطة المثلى بعد التجربة و قد امتلأت قلوبهم باليقين و الإيمان .

و نحن الآن وقد اشتد ساعد الدعوة و صلب عودها و أصبحت تستطيع أن توجه و لا توجه و أن تؤثر و لا تتأثر ، نهيب بالكبراء و الأعيان و الهيئات و الأحزاب أن ينضموا إلينا ، و أن يسلكوا سبيلنا و أن يعملوا معنا و أن يتركوا هذه المظاهر الفارغة التي لا غناء فيها ، و يتوحدوا تحت لواء القرآن العظيم يستظلوا براية النبي الكريم و منهاج الإسلام القويم ، فإن أجابوا فهو خيرهم و سعادتهم في الدنيا و الآخرة و تستطيع الدعوة بهم أن تختصر الوقت و

الجهود ، و إن أبوا فلا بأس علينا أن ننتظر قليلا و نلتمس المعونة من الله و حده حتى يحاط بهم أو يسقط في أيديهم و يضطرون إلى العمل للدعوة أذنابا و قد كانوا يستطيعون أن يكونوا رؤساء ، (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف:٢١)

٤ – التدرج في الخطوات

وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك .

ولكن لاشك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين.

في حدود هذه المراحل سارت دعوتنا ولا تزال تسير، فقد بدأنا بالدعوة فوجهناها إلى الأمة في دروس متتالية وفي رحلات متلاحقة وفي مطبوعات كثيرة وفي حفلات عامة وخاصة، وفي جريدة الإخوان المسلمين الأولى ثم في مجلة النذير الأسبوعية، ولا زلنا ندعو، وسنظل كذلك، حتى لا يكون هناك فرد واحد لم تصله دعوة الإخوان المسلمين على حقيقتها الناصعة، وعلى وجهها الصحيح، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وأظن أننا وصلنا في هذه المرحلة إلى درجة نطمئن عليها وعلى اطراد السير فيها، وصار من ألزم واجباتنا أن نخطو الخطوة الثانية، خطوة الاختيار والتكوين والتعبئة .

خطونا الخطوة الثانية في صور ثلاث:

١ ــ الكتائب: ويراد بها تقوية الصف بالتعارف، وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين.

٢ ــ الفرق للكشافة والجوالة والألعاب الرياضية: ويراد بها تقوية الصف بتنمية جسوم الإخوان، وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضية الفاضلة، وإعدادهم للجندية الصحيحة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين.

٣ ــ درس التعاليم في الكتائب أو في أندية الإخوان المسلمين: ويراد بها تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته لدينه ودنياه، وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين، ذلك إلى مختلف نواحي النشاط الأخرى التي يدرب بها الإخوان على الواجب الذي ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة، بل لهداية العالمين.

بعد أن نطمئن على موقفنا من هذه الخطوة نخطو إن شاء الله الخطوة الثالثة، وهي الخطوة العملية التي تظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان المسلمين .

مصارحة

أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم :

اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع : إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده . ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلي غيرها من الدعوات . ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره في ذلك علي الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون :

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف ، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة . ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فأنها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها علي بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد .

أيها الإخوان المسلمون

إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين . ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد ، ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين ، وإما مصيبون فلنا أجر الفائزين المصيبين . علي أن التجارب في الماضي والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا طريقكم ، ولا إنتاج إلا مع خطتكم ، ولا صواب إلا فيما تعملون ، فلا تغامروا بجهودكم ولا تقامروا بشعار نجاحكم . واعملوا والله معكم ولن يتركم أعمالكم والفوز للعاملين (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (البقرة:١٤٣) .

متي تكون خطوتنا التنفيذية ؟

أيها الإخوان المسلمون :

نحن هنا في مؤتمر أعتبره مؤتمراً عائلياً يضم أسرة الإخوان المسلمين ، وأريد أن أكون معكم صريحاً للغاية فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة :

إن ميدان القول غير ميدان الخيال ، وميدان العمل غير ميدان القول ، وميدان الجهاد غير ميدان العمل ، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ .

يسهل علي كثير ين أن يتخيلوا ، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالا باللسان ، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلاً من هذا الكثير يثبت عند العمل ، وكثير من هذا القليل يستطيع أن يعمل ، ولكن قليلا منهم يقدر علي حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل المضني . وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله ، وفي قصة طالوت بيان لما أقول ، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق وامتحنوها بالعمل ، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها ، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها .

وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ــ معشر الإخوان المسلمين ــ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسيا روحياً بالإيمان والعقيدة ، وفكرياً بالعلم والثقافة ، وجسمياً بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لحج البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء . وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإني فاعل إن شاء الله ، وصدق رسول الله القائل: (ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة). إني أقدر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته ، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبهم أن تقصروا هذا الآجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم ، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب ، وتختلف النتائج المترتبة عليه ،

فأشعروا أنفسكم العبء وألقوا الكتائب وكونوا الفرق ، وأقبلوا علي الدروس ، وسارعوا إلـــي التدريب وانشروا دعوتكم في الجهاد التي لم تصل إليها بعد ، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل .

وقد يظن من يسمع هذا أن الإخوان المسلمين قليل عددهم أو ضعيف مجهودهم ، ولست إلى هذا أقصد وليس هذا هو مفهوم كلامي ، فالإخوان المسلمون والحمد لله كثيرون ، وإن جماعة يمثلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها كل منهم ينوب عن شعبة كاملـــة لأكثـــر مـــن أن يستقل عددها أو ينسي مجهودها أو يغمط حقها ، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولا من أن رجل القول غير رجل العمل ، و رجل العمل غير رجل الجهاد ، و رجل الجهاد فقط غيـــر رجـــل الجهاد المنتج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات .

٥ – إيثار الناحية العملية

و أما إيثار الناحية العملية فقد أثارها في نفوس الإخوان و دعا إليها في منهاجهم أمور :

منها ما جاء في الإسلام خاصا بهذه الناحية بالذات ، و مخافة أن تشوب هذه الأعمال شوائب الرياء فيسرع إليها التلف و الفساد و الموازنة بين هذه النظرة و بين ما ورد في إذاعة الخير والأمر به والمسارعة إلى إعلانه ليتعدى نفسه ، أمر دقيق قلما يتم إلا بتوفيق .

و منها نفور الإخوان الطبيعي من اعتماد الناس على الدعايات الكاذبة و التهريج الذي ليس من ورائه عمل ، و ما أنتجه في هذه الأمة من أثر سيئ و تضليل كبير و فساد ملموس .

و منها ما كان يخشاه الإخوان من معاجلة الدعوة بخصومة حادة أو صداقة ضارة ينتج عـــن كليهما تعويق السير أو تعطيل عن الغاية .

كل هذه أمور و ضعها الإخوان في ميزانهم آثروا أن يسيروا في دعوتهم بجد و إسراع و إن

لم يشعر بهم إلا من حولهم ، و إن لم يؤثر ذلك إلا في محيطهم .

قليل من الناس من يعرف أن الداعية من دعاة الإخوان قد يخرج من عمله المصلحي في عصر الخميس ، فإذا هو في العشاء بالمنيا يحاضر الناس ، و إذا هو في صلاة الجمعة يخطب بمنفلوط ، فإذا هو في العصر يحاضر بأسيوط ، و بعد العشاء يحاضر بسوهاج ، ثم يعود أدراجه هادئ النفس مطمئن القلب يحمد الله على ما وفقه إليه و لا يشعر به إلا الذين استمعوه .

هذا مجهود لو قام به غير الإخوان لملأ الدنيا صياحا و دعاية ، و لكن الإخوان ــ لما قدمت ــ يؤثرون ألا يراهم الناس إلا عاملين ، فمن أقنعه العمل فبها ، و من لم يؤثر فيه العمل فلن يرشده القول .

قد يقضي الأخ شهرا أو شهرين بعيدا عن أهله و بيته و زوجه و ولده يدعو إلى الله ، هو في الليل محاضر و في النهار مسافر ، يوما بحزوى و يوما بالعقيق ، فيلقي أكثر من ستين محاضرة من شرق القطر إلى غربه ، و قد تضم الحفلات التي يحاضر فيها الآلاف من مختلف الطبقات ، ثم هو بعد ذلك يوصي ألا يكون محل دعاية أو إعلان .

يعقد الإخوان معسكرا نموذجيا بالأسكندرية قرابة شهر فيكون معسكرا نموذجيا بحق ، يجمع رياضة الفكر و الروح إلى رياضة البدن و الجسم ، و تتمثل فيه بجلاء وضوح المعاني الرياضية و العسكرية الكاملة ، و يدوم ذلك طول هذه الفترة ، و يضم تحت خيامه المباركة مائة من الشباب التقي المؤمن ، فلا يكون لذلك صداه في غير من حضروه من الإخوان المسلمين .

يعقد مؤتمر كمؤتمركم هذا و هو في الواقع أصدق برلمان لمصر إذ مثلت فيه مديرياتها و

مراكزها و قراها و حواضرها من كل الطبقات أصدق تمثيل ، و قد حضرتم جميعا لا يحملكم إلى ذلك إلا الرغبة الأكيدة في العمل المنتج ، فنوجه إليكم الدعوة و يضمكم معشر الإخـــوان المسلمين هذا المكان المبارك .

يقوم الإخوان المسلمون بهذا و بغيره من ضروب الإصلاح التي تنتج أحسن الآثار ثم هم بذلك لا يتشدقون و لا يباهون ، و لا يذكرون حتى الحقيقة فضلا عن المبالغة و الإغراق ، و لـــو كان بعض هذا النشاط و بعض هذه الأعمال مما يوفق إليه غير الإخوان من الهيئات لملئـــوا الدنيا صراخا ، و لأسمعوا من في المشرق و المغرب ، و عجب فنحن في عصر الدعايات .

أيها الإخوان :

ذلك المعنى الذي تقصدون إليه معنى جميل حقا و خطة محمودة عنـــد الله و عنـــد النـــاس ، فادرجوا عليها و لا بأس عليكم ، و لكن لا حظوا أنكم الآن و قد أرغمتكم الدعوة علـــى أن تتخطوا الحواجز الخاصة إلى ا لميادين الواسعة ، و قد أظهرت الدعوة نفسها فأخذ الناس يتساءلون عنها و عنكم ، و أخذ بعض الفضوليين يتطوع بتصويركم لغيركم و هو لا يـــدري قليلا و لا كثيرا من شؤونكم ، فقد وجب عليكم أن تبينوا للناس غايتكم و وســـيلتكم و حـــدود فكرتكم و منهاج أعمالكم ، و أن تعلنوا هذه الأعمال على الناس لا للمباهاة بها و لكن للإرشاد إلى ما فيها من نفع للأمة و خير لأبنائها فاكتبوا إلى النذير و هي لـــسانكم ، و اكتبـــوا إلـــى الصحف اليومية و أظنها لا تقف ي سبيلكم ، و احرصـــوا علـــى أن تكونـــوا صـــادقين لا تتجاوزون الحقيقة ، و أن تكون دعايتكم في حدود الأدب الكامل و الخلق الفاضل و الحرص التام على جمع القلوب و تأليف الأرواح ، و استشعروا كلما ظهرت دعوتكم أن الفضل فـــي

ذلك كله لله : (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات:١٧)

.

٦ – إقبال الشباب على الدعوة

و أما إقبال الشباب على الدعوة ، و نموها في كثير من الأوساط التي هي أخصب المنابت للدعوات التي هي أخصب المنابت للدعوات من الطبقات العاملة و الوسطى ، فتوفيق كبير نحمد الله عليه ، فقد أقبل الشباب من كل مكان على دعوة الإخوان يؤمن بها و يؤيدها و يناصرها ، و يعاهد الله على النهوض بحقها و العمل في سبيلها .

تقدم ستة من شباب الجامعة منذ سنوات يهبون الله نفوسهم و جهودهم ، و علم الله منهم ذلك فأيدهم و آزرهم ، فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان المسلمين تحبهم و تحترمهم و تتمنى لهم النجاح ، و إذا من الشباب الجامعي فئة كريمة مؤمنة تتفانى في الدعوة و تبشر بها في كل مكان .

قل مثل ذلك في الأزهر الشريف ، و الأزهر بطبعه معقل الدعوة الإسلامية و موئل الإسلام ، فليس غريبا عليه أن يعتبر دعوة الإخوان المسلمين دعوته و أن يعد غايتها غايته ، و أن تمتلئ الصفوف الإخوانية و الأندية الإخوانية بشبابه الناهض و علمائه الفضلاء و مدرسيه و وعاظه ، و أن يكون لهم جميعا أكبر الأثر في نشر الدعوة و تأييدها و المناداة بها في كل مكان ، و لم يقتصر إقبال الشباب على طوائف الطلبة و الفضلاء و من إليهم ، بل إن كثيرا من طبقات الشعب المؤمنة أقبل على الدعوة و كان خير معوان في مناصرتها ، و إن كثيرا من الشباب كان ضالا فهداه الله و كان حائرا فأرشده الله ، و كانت المعصية له عادة فوفقه الله

إلى الطاعة ، و كان لا يعرف له غاية من الحياة فوضحت أمامه الغاية ، (يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) (النور:٣٥) .

و إنا لنعتبر ذلك من علامات التوفيق و نلمس كل يوم تقدما جديدا في هذا الباب يدعونا إلى الأمل القوي و المثابرة و مضاعفة الجهود ، (وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (آل عمران:١٢٦) .

٧ – سرعة الانتشار في القرى و المدن

و أما سرعة انتشار الدعوة في القرى و المدن فقد قدمت لكم أن الدعوة نشأت في الإسماعيلية ، و ترعرعت في جوها الصافي و درجت على رمالها الممتدة الجميلة ، يغذيها و ينميها ما ترى ما ترى كل صباح و مساء من مظاهر الاحتلال الأجنبي و الاستئثار الأوربي بخير هذا البلد ، فهذه قناة السويس علة الداء و أصل البلاء ، و في الغرب المعسكر الإنجليزي بأدواته و معداته ، و في المشرق المكتب العام لإدارة شركة القناة بأثاثه و رياسته و عظمته و مرتباته ، و المصري غريب بين كل هذه الأجواء في بلده محروم و غيره ينعم بخير وطنه ذليل ، و الأجنبي يعتز بما يغتصبه من موارد رزقه ، كان هذا الشعور غذاء جميلا و مدادا طيبا لدعوة الإخوان فبسطت رواقها في منطقة القناة ثم تخطتها إلى البحر الصغير ثم إلى مديرية الدقهلية ، تحتل قلوب المؤمنين بها بذرة صغيرة متواضعة ، ثم لا تلبث أن تستولي على هذه القلوب و تستغرق شعورها و تفكيرها ، و تصبح للرجل أمل الآمال و غاية الغايات فيدعو و يضحي و يبذل .

و خطت الدعوة إلى القاهرة باندماج جمعية الحضارة الإسلامية بدعاتها و أدواتها إلى الإخوان

، إيمانا بفكرتهم و إيثارا للعمل مع الجماعة ، و زهادة في الألقاب و الأسماء ، و احتقارا لهذه الأنانية الفردية التي أفسدت علينا كل عمل ، ثم تبع ذلك تكون مكتب الإرشاد العام بالقاهرة و إشرافه على شعب الجماعة الناشئة في الأقاليم و البلدان ، و عمله الدائب على نشر الفكـــرة و إيصالها للبلدان التي لم تتصل بها بعد .

و دأب المكتب بعد ذلك يقتطع أعضاؤه من قوتهم و أوقاتهم و جهودهم ما يستعينون به علـــى خدمة عقيدتهم في عفة الأسد ، و في طهارة ماء الغمام ، لا يمدون لأحد يـــدا و لا يـــسألون كبيرا و لا هيئة شيئا ، و لا يأخذون من مال حكومة و لا يطلبون معونة أحد إلا الله ، حتـــى انتشرت شعب الإخوان بسرعة فائقة في جميع نواحي القطر المـــصري مـــن أســـوان إلـــى الإسكندرية إلى رشيد إلى بورسعيد إلى السويس إلى طنطا ، إلى الفيوم إلى بني سويف ، إلى المنيا ، إلى أسيوط ، إلى جرجا ، إلى قنا ، و فيما بين ذلك من المراكز و القرى .

و لم تقف عند هذه الحدود المصرية بل تجاوزتها إلى القسم الجنوبي من الوطن الغالي ، إلـــى السودان المفدى ، ثم إلى بقية أجزاء الوطن الإسلامي العزيز : سوريا بأقـــسامها شـــرقا ، و المغرب بأقسامه غربا ، ثم إلى غير ذلك من بقية بلادنا الإسلامية المباركة .

كنا نوجه الدعوة و نعمل على انتشارها ، أما الآن فقد صارت الدعوة تسبقنا إلـــى الـــبلاد و القرى و تضطرنا إلى ملاحقتها و أداء حقوقها مهما كان في ذلك من عنت و من إرهـــاق ، و المهم أن الصلة بين هذه الهيئات كلها ليس مجرد التشابه في الاسم أو الوحـــدة فـــي المقـــصد العام ، كلا بل إنها أقوى الصلات جميعا ، إنها صلة الحب العميـــق و التعـــاون الوثيـــق ،و الارتباط القدسي المتين ، و الالتفاف التام حول محور الدعوة و مركزها ، و الوحدة و الشاملة في الألم و الأمل و الجهاد و العمل ، و الوسائل و الغايات و المناهج و الخطوات ، و لـــيس

بعد ذلك زيادة لمستزيد .

و ليست هذه الهيئات في البلدان القرى مقتصرة في عملها على تنفيذ تعليمات المكتب الرئيسي لها بالقاهرة ، بل إنها تجد و تعمل في مناحي الخدمة العامة فتبني أنديتها ، و كثير منها قد بنى داره و أصبحت ملكا خالصا له خاصا به ، و كثير منها كذلك قام بالكثير من المشروعات الخيرية و الاقتصادية و الاجتماعية ، و جميعها دائمة النشاط جمة الإنتاج كما أن صلة المكتب بفروعه و هيئاته المختلفة ليست صلة الرئيس بالمرؤوس ، و ليس صلة الإدارة البحتة و الإشراف العلمي فقط ،و لكنها صلة فوق ذلك كله : صلة الروح أولا ، و صلة أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض ، التزاور في الله ، فدعاة الإخوان يزورن إخوانهم و يختلطون بهم و يعرفون أهم ما يتصل بحياتهم و شؤونهم الخاصة و العامة ، و لم يتوفر ذلك لهيئة من الهيئات القائمة فيما أعلم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

أيها الإخوان :

لا أكتمكم أني مزهو بهذه الوحدة الإخوانية الصادقة ، فخور بهذا الارتباط الرباني القوي المتين ، عظيم الأمل في المستقبل ، ما دمتم كذلك أخوة في الله متحابين متعاونين ، فاحرصوا على هذه الوحدة فإنها سلاحكم و عدتكم .

و عن كثيرا من الناس ليتساءل : و من أين يقوم الإخوان المسلمون بنفقات هذه الدعوة ، و هي نفقات كثيرة تعجز الأغنياء فضلا عن الفقراء ؟

ألا فليعلم هؤلاء و ليعلم غيرهم أن الإخوان المسلمين لا يبخلون على دعوتهم يوما من الأيام بقوت أولادهم و عصارة دمائهم و ثمن ضرورياتهم ، فضلا عن كمالياتهم و الفائض من

نفقاتهم ، و أنهم يوم أن حملوا هذا العبء عرفوا جيدا أنها دعوة لا ترضى بأقل من الدم و المال ، فخرجوا عن ذلك كله لله و فقهوا معنى قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (التوبة:١١١) ، فقبلوا البيع و قدموا البضاعة عن رضا و طيب نفس ، معتقدين أن الفضل كله لله ، فاستغنوا بما في أيديهم عما في أيدي الناس ، و منحهم الله البركة في القليل فأنتج الكثير .

إلى الآن أيها الإخوان لم يمنح مكتب الإرشاد العام إعانة واحدة من حكومة أيا كانت ، و ها هو يباهي و يفاخر و يتحدى الناس جميعا أن يقول أحدهم إن هذا المكتب قد دخل خزانته قرش واحد من غير جيوب أعضائه ، و لسنا نريد إلا هذا ، ولن نقبل إلا من عضو أو من محب ، ولن نعتمد علي الحكومات في شيء ، ولا تجعلوا في ترتيبكم ولا منهاجكم ذلك ولا تنظروا إليه ولا تعملوا له ، (وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) (النساء:٣٢).

تلك أيها الإخوان بعض خصائص دعوتكم ، انتهزت هذه الفرصة لأتحدث إليكم عنها ، وأنتقل بعد ذلك إلى ناحية هامة من نواحي الدعوة قد يلتبس الأمر في موقف الإخوان منها علي كثير من الناس ، وربما خفي علي بعض الإخوان أنفسهم حتى نحدد معاً ونكشف معاً ما عسي أن يكون من إبهام .

منهاج الإخوان المسلمين

الغاية والوسيلة

أظنكم أيها الاخوة الفضلاء قد عرفتم من هذا الحديث الطويل غاية الإخوان ووسيلتهم ومهمتهم تماماً .

إن غاية الإخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل علي صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها : صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة وأن وسيلتهم في ذلك تنحصر في تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة علي هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم في التمسك بها والحرص عليها والنزول علي حكمها ؛ وأنهم ساروا إلى غايتهم في حدود وسيلتهم فوصلوا إلى درجة من النجاح يطمئنون إليها ويحمدون الله عليها ، و أظنني لست في حاجة إلي مزيد شرح أو بيان في هذه الناحية .

الإخوان والقوة والثورة

ويتساءل كثير من الناس : هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الإخوان المسلمين في إعداد ثورة عامة علي النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر ؟ ....

ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة ، بل إني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا في وضوح وفي جلاء ، فليسمع من يشاء .

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه و تشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح و جلاء:

 (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) (لأنفال:٦٠).

و النبي يقول (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) ، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء و هو مظهر الخشوع و المسكنة ، واسمع ما كان يدعو به النبي في خاصة نفسه و يعلمه أصحابه و يناجي به ربه : (اللّهُمّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمّ وَالْحَزَنِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدّيْنِ وَقَهْرِ الرّجَال) ، ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف : ضعف الإرادة بالهم و الحزن ، و ضعف الإنتاج بالعجز و الكسل ، و ضعف الجيب و المال بالجبن و البخل ، و ضعف العزة و الكرامة بالدين و القهر ؟ .. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قويا في كل شيء ، شعاره القوة في كل شيء ؟.. فالإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء ، و لابد أن يعملوا في قوة .

و لكن الإخوان المسلمين أعمق فكرا و أبعد نظرا من أن تستهويهم سطحية الأعمال و الفكر ، فلا يغوصوا في أعماقها و لا يزنوا نتائجها و ما يقصد منها و ما يراد بها ، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة و الإيمان ، ثم يلي ذلك قوة الوحدة و الارتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد و السلاح ، و لا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعا ، و أنها إذا استخدمت قوة الساعد و السلاح و هي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء و الهلاك .

هذه نظرة ، و نظرة أخرى : هل أوصى الإسلام ــ و القوة شعاره ــ باستخدام القوة في كل الظروف و الأحوال ؟ أم حدد لذلك حدودا و اشترط شروطا و وجه القوة توجيها محدودا ؟

و نظرة ثالثة : هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكي ؟ و هل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة و نتائجها الضارة و ما يحيط بهذا الاستخدام من

ظروف ؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة و ليكن بعد ذلك ما يكون ؟

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه ، و الثورة أعنف مظاهر القوة ، فنظر الإخوان المسلمون إليها أدق و أعمق ، و بخاصة في وطن كمصر جرب حظه من الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون .

و بعد كل هذه النظرات و التقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين : إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة ، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح.

وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ، ولا يعتمدون عليها ، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها ، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دامت علي هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذا المشاكل ، فسيؤدي ذلك حتما إلي ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال ، وإهمال مرافق الإصلاح ، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن و يستفحل أمرها بمضي الأيام إلا نذيراً من هذه النذر ، فليسرع المنقذون بالأعمال .

الإخوان المسلمون والحكم

ويتساءل فريق آخر من الناس : هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة وأن

يطالبوا بالحكم ؟ وما وسيلتهم إلى ذلك ؟ ...

ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً في حيرة ، ولا نبخل عليهم بالجواب .

فالإخوان المسلمون يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم علي هدي الإسلام الحنيف كما فهموه ، وكما أبانوا عن فهمهم هذا في أول هذه الكلمة . وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من أركانه ، ويعتمد علي التنفيذ كما يعتمد علي الإرشاد ، وقديماً قال الخليفة الثالث رضي الله عنه : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) . وقد جعل النبي صلي الله عليه وسلم الحكم عروة من عري الإسلام . والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول ، لا من الفقهيات والفروع ، فالإسلام حكم وتنفيذ ، كما هو تشريع وتعليم ، كما هو قانون وقضاء ، لا ينفك واحد منها عن الآخر . والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول ، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ علي مخالفة أوامره ، فان النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة في رماد كما يقولون .

قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ و الإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله و تنفيذا لأحكامه و إيصالا لآياته و لأحاديث نبيه ، و أما الحال كما نرى : التشريع الإسلامي في واد و التشريع الفعلي في واد آخر ، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف .

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا ، و لكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف

وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

وعلى هذا فالإخوان المسلمون أعقل و أحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم و نفوس الأمة على هذا الحال ، فلابد من فترة تنتشر فيها مبادئ الإخوان و تسود ، و يتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

و كلمة لابد أن نقولها في هذا الموقف : هي أن الإخوان المسلمين لم يروا في حكومة من الحكومات التي عاصروها ــ و لا الحكومة القائمة و لا الحكومة السابقة ، و لا غيرهما من الحكومات الحزبية ــ ن ينهض بهذا العبء أو من يبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية ، فلتعلم الأمة ذلك ، و لتطالب حكامها بحقوقها الإسلامية ، و ليعمل الإخوان المسلمون .

و كلمة ثانية : أنه ليس أعمق في الخطأ من ظن بعض الناس أن الإخوان المسلمين كانوا في أي عهد من عهود دعوتهم مطية لحكومة من الحكومات ، أو منفذين لغاية غير غايتهم ، أو عاملين على منهاج غير منهاجهم ، فليعلم ذلك من لم يكن يعلمه من الإخوان و من غير الإخوان .

الإخوان المسلمون و الدستور

ويتساءل كذلك فريق من الناس ما موقف مجموعة الإخوان المسلمين من الدستور المصري ؟ و لاسيما بعد أن كتب الأخ صالح أفندي عشماوي رئيس تحرير مجلة النذير في هذا الموضوع

، و تناولت كتابته صحيفة (مصر الفتاة) بالنقد و الموازنة ،و هذه فرصة طيبة لأتحدث إلى حضراتكم فيها عن رأي الإخوان المسلمين و موقفهم من الدستور المصري ، وأحب قبل هذا أن نفرق دائما بين (الدستور) وهو نظام الحكم العام الذي ينظم حدود السلطات وواجبات الحاكمين ومدى صلتهم بالمحكومين ، وبين (القانون) وهو الذي ينظم صلة الأفراد بعضهم ببعض ويحمى حقوقهم الأدبية والمادية ويحاسبهم على ما يأتون من أعمال .

و أستطيع بعد هذا البيان أن أجلي لكم موقفنا من نظام الحكم الدستوري عامة ، و من الدستور المصري خاصة :

الواقع أيها الإخوان : أن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها ، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب و محاسبتهم على ما يعملون من أعمال ، وبيان حدود كل سلطة من السلطات هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم .

ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاماً آخر .

بقي بعد ذلك أمران : أولهما النصوص التي تصاغ في قالبها هذه المبادئ ، و ثانيهما طريقة التطبيق التي تفسر بها عمليا هذه النصوص ، إن المبدأ السليم القويم قد يوضع في نص مبهم غامض فيدع مجالا للعبث و بسلامة المبدأ في ذاته ، و إن النص الظاهر الواضح للمبدأ السليم القويم قد يطبق و ينفذ بطريقة يمليها الهوى و توحيها الشهوات ، فيذهب هذا التطبيق بكل ما يرجى من فائدة .

و إذا تقرر هذا فإن من نصوص من الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون غامضا مبهما يدع مجالا واسعا للتأويل و التفسير الذي تمليه الغايات و الأهواء ، فهي في حاجة إلى وضوح و إلى تحديد و بيان ... هذه واحدة ، و الثانية : هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور ، و يتوصل بها إلى جني ثمرات الحكم الدستوري في مصر ، طريقة أثبتت التجارب فشلها و جنت الأمة منها الأضرار لا المنافع ، فهي في حاجة شديدة إلى تحوير و إلى تعديل يحقق المقصود و يفي بالغاية .

و حسبنا أن نشير هنا إلى قانون الانتخاب ، و هو وسيلة اختيار النواب الذين يمثلون الأمة و يقومون بتنفيذ دستورها و حمايته ، و ما جره هذا القانون على الأمة من خصومات و حزازات ، و ما أنتجه يشهد به الواقع الملموس ، و لابد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الأخطاء و العمل على تعديلها .

لهذا يعمل الإخوان المسلمون جهدهم حتى تحدد النصوص المبهمة في الدستور المصري ، و تعدل الطريقة التي ينفذ بها هذا الدستور في البلاد ، و أظن أن موقف الإخوان قد وضح بهذا البيان ، و ردت الأمور إلى نصابها الصحيح .

إن الأخ صالح أفندي عشماوي قد أراد أن يعبر في مقاله الأول عن وجهة النقد التي يراها الإخوان فاحتد و اشتد ، و لما نبهناه إلى أن هذا ليس موقفنا في الواقع ، فنحن نسلم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستوري باعتبارها متفقة بل مستمدة من نظام الإسلام ، و إنما ننقد الإبهام و طرائق الإنفاذ ، أراد أن يعبر عن ذلك و يقر الأمر في وضعه الطبيعي بالنسبة للإخوان فتساهل و لان ، و هو في كلا الموقفين مأجور ، فالخير أراد ، و نية المرء خير من عمله ، و نحن نشكر الذين أخذوا على الأخ صالح أفندي هذا الموقف ، و لا يضره فيما أعتقد أن يستفيد من هذا التنبيه فيؤثر الاعتدال في كل حال ، و أعتقد أنه لا مجال لقول بعد هذا البيان ، أما الأمثلة التفصيلية و الأدلة الوافية و وصف طرائق العلاج و الإصلاح ففي رسالة خاصة إن شاء الله .

الإخوان المسلمون و القانون

قدمت أن الدستور شيء و القانون شيء آخر ، و قد أبنت موقف الإخوان من الدستور ، و أبين لحضراتكم الآن موقفهم من القانون .

إن الإسلام لم يجئ خلواً من القوانين، بل هو قد أوضح كثيراً من أصول التشريع وجزئيات الأحكام، سواء أكانت مادية أم جنائية، تجارية أم دولية ، والقرآن والأحاديث فياضة بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنية كل الغنى بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسهم بهذه الحقيقة، وأقرها مؤتمر لاهاي الدولي أمام ممثلي الأمم من رجال القانون في العالم كله .

فمن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمة إسلامية متناقضًا مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنة نبيها، مصطدماً كل الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذر الله نبيه ص من ذلك من قبل، فقال تبارك وتعالى: (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة:٤٩-٥٠) ، ذلك بعد قوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ــ الظَّالِمُونَ ــ الْفَاسِقُونَ) (المائدة:٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧) ، فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البينات وغيرها من الأحاديث والأحكام، ثم رأى نفسه محكوماً بقانون يصطدم معها؟ فإذا طالب بالتعديل قيل له: إن الأجانب لا يرضون بهذا ولا يوافقون عليه ، ثم يقال بعد هذا الحجر والتضييق : إن المصريين مستقلون وهم لم يملكوا بعد أن يتمتعوا بحرية الدين، وهي أقدس الحريات .

على أن هذه القوانين الوضعية كما تصطدم بالدين ونصوصه تصطدم بالدستور الوضعي نفسه الذي يقرر أن دين الدولة هو الإسلام ، فكيف نوافق بين هذين يا أولى الألباب ؟

وإذا كان الله ورسوله قد حرم الزنا وحظر الربا ومنع الخمور وحارب الميسر وجاء القانون يحمى الزانية و الزاني ويلزم بالربا ويبيح الخمر وينظم القمار فكيف يكون موقف المسلم بينهما ؟ أيطيع الله ورسوله ويعصى الحكومة وقانونها والله خير وأبقى ؟ أم يعصى الله ورسوله ويطيع الحكومة فيشقى في الآخرة والأولى ؟ نريد الجواب على هذا من رفعة رئيس الحكومة و معالي وزير العدل و من علمائنا الفضلاء الأجلاء .

أما الإخوان المسلمون فهم لا يوافقون على هذا القانون أبدا ولا يرضونه بحال وسيعملون بكل سبيل على أن يحل مكانه التشريع الإسلامي العادل الفاضل في نواحي القانون ولسنا هنا في مقام الرد على ما قيل في هذه الناحية من شبهات أو ما يعترض سبيلها من توهم العقبات ولكننا في مقام بيان موقفنا الذي عملنا وسنعمل عليه متخطين في سبيله كل عقبة موضحين كل شبهة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

و لقد تقدم الإخوان المسلمون إلى معالي وزير العدل بمذكرة إضافية في هذا الموضوع ، و لقد حذروا الحكومة في نهايتها من إحراج الناس هذا الإحراج ، فالعقيدة أثمن ما في الوجود ،

و سوف يعاودون الكرّة ، و سوف لا يكون ذلك آخر مجهودهم (وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُـتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (التوبة:٣٢)

الإخوان والقومية والعروبة والإسلام

كثيرا ما تتوزع أفكار الناس في هذه النواحي الثلاثة : الوحدة القومية والوحدة العربية والوحدة الإسلامية وقد يضيفون إلى ذلك الوحدة الشرقية ثم تنطلق الألسنة والأفكار بالموازنة بينها وإمكان تحققها أو صعوبة ذلك الإمكان ، ومبلغ الفائدة أو الضر منها و التشجيع لبعضها دون البعض الآخر .

فما موقف الإخوان المسلمين من هذا الخليط ومن الأفكار والمناحي ؟ ولا سيما وكثير من الناس يغمزون الإخوان المسلمين في وطنيتهم ويعتبرون تمسكهم بالأفكار الإسلامية مناعة إياهم من الإخلاص للناحية الوطنية .

والجواب عن هذا أننا لن نحيد عن القاعدة التي وضعناها أساسا لفكرتنا وهى السير على هدى الإسلام وضوء تعاليمه السامية . فما موقف الإسلام نفسه من هذه النواحي ؟

إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها وأن يعمل كل إنسان لخير بلده وأن يتفانى في خدمته ، و أن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا حتى أنه لا يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر – إلا لضرورة – إيثارا للأقربين بالمعروف فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هي عليها وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين وكان الإخوان المسلمون بالتالي أشد الناس حرصا على خير وطنهم وتفانيا في خدمة قومهم ، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى ، وكل فلاح ونجاح ، و قد انتهت إليها رياسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم ، و إن حب المدينة لم يمنع رسول الله أن يحن إلى مكة و

أن يقول لأصيل ، و قد أخذ يصفها (يا أصيل دع القلوب تقر) و أن يجهل بلالا يهتف في قرارة نفسه :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

فالإخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار لا يجدون غضاضة على أي إنسان يخلص لبلده ، وأن يفنى في سبيل قومه وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عزة وفخار ، هذا من وجهة القومية الخاصة .

ثم أن الإسلام الحنيف نشأ عربيا و وصل إلى الأمم عن طريق العرب ، و جاء كتابه بلسان عربي مبين ، و توحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ، و قد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام ، و قد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي و انتقل المر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم و الديلم و من إليهم ، فالعرب هم عصبة الإسلام و حراسه .

و أحب هنا أن ننوه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة ، كما عرفها النبي ، فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : (ألا إن العربية اللسان ، ألا إن العربية السان) .

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها، وهذا موقف مجموعة البحث من الوحدة العربية .

بقي علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية ، و الحق أن الإسلام كما هو عقيدة وأنه قضى على الفوارق النسبية بين الناس فالله تبارك وتعالى يقول : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات:١٠) ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم) والمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على سواهم .

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفروق الجنسية والدموية ، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنا واحدا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده .

وكذلك الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة ، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوان الإسلام وينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وما أروع ما قال في هذا المعنى شاعر من شعراء الإخوان :

ولست أدرى سوى الإسلام لي وطنا الشام فيها و وادي النيل سيان

وكلمـــــا ذكر أسم الله فى بلـــد عددت أرجاءه من لب أوطـاني

يقول بعض الناس : إن ذلك يناقض تيار الفكرة السائدة في العالم فكرة التعصب للأجناس و الألوان ، و العالم الآن تجربة موجة القوميات الجنسية ، فكيف تقفون أمام هذا التيار ، و كيف تخرجون على ما اتفق عليه الناس ؟

و جواب ذلك أن الناس يخطئون و أن نتائج خطئهم في ذلك ظاهرة ملموسة في إقلاق راحة الأمم و تعذيب ضمائر الشعوب مما لا يحتاج إلى برهان ، و ليست مهمة الطبيب أن يجاري المرضى و لكن أن يعالجهم و أن يهديهم سواء السبيل ، و تلك مهمة الإسلام و من وصل دعوته بالإسلام .

و يقول آخرون : إن ذلك غير ممكن و العمل له عبث لا طائل من تحته و مجهود لا فائدة منه ، و خير للذين يعملون لهذه الجامعة أن يعملوا لأقوامهم يخدموا أوطانهم الخاصة بجهودهم .

و الجواب على هذا أن هذه لغة الضعف و الاستكانة ، فقد كانت هذه الأمم مفرقة من قبل متخالفة في كل شيء : الدين و اللغة ، و المشاعر و الآمال و الآلام ، فوحدها الإسلام و جمع قلوبها على كلمة سواء ، و مازال الإسلام كما هو بحدوده و رسومه ، فإذا وجد من أبنائه من ينهض بعبء الدعوة إليه و تجديده في نفوس المسلمين ، فإنه يجمع هذه الأمم جميعا من جديد كما جمعها من قديم ، و الإعادة أهون من الابتداء ، و التجربة أصدق دليل على الإمكان .

يهتف بعض الناس بعد هذا بالوحدة الشرقية ، و أظن أنه لم يثر هذه النعرة في نفوس الهاتفين بها إلا تعصب الغربيين لغربهم و سوء عقيدتهم في الشرق و أبنائه ، و هم في ذلك مخطئون ، و إذا استمر الغربيون على عقيدتهم هذه فستجر عليهم الوبال و النكال ، و الإخوان المسلمون لا ينظرون إلى هذه الوحدة الشرقية إلا من خلال هذه العاطفة فقط ، و الشرق و الغرب عندهم سيان إذا استوى موقفهما من الإسلام ، و هم لا يزنون الناس إلا بهذا الميزان .

وضح إذا أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، و لا يرون بأسا بأن يعمل كل إنسان لوطنه ، و أن يقدمه للوطن على سواه ، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام ، ولي أن أقول بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله ، فهم ينادون بالوحدة العالمية لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء:١٠٧) .

و أنا في غنى بعد هذا البيان أن أقول أنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار ، و بان كل منهما يشد أزر الأخرى يحقق الغاية منها ، فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحا يميت الشعور بما عداها ، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم و لعل هذا هو الفارق بيننا و بين كثير من الناس .

الإخوان المسلمون و الخلافة

و لعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان السلمين من الخلافة و ما يتصل بها ، و بيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية ، و مظهر الارتباط بين أمم الإسلام ، و إنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكر في أمرها و الاهتمام بشأنها ، و الخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله ، و لهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي و دفنه ، حتى فرغوا إلى تلك المهمة و اطمأنوا إلى إنجازها .

و الأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام ، و بيان أحكام الإمامة و تفصيل ما يتعلق بها ، لا تدع مجالا للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حورت عن منهاجها ثم ألغيت بتاتا إلى الآن .

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم ، و هم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لابد منها ، و أن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات :

لا بد من تعاون تام ثقافي و اجتماعي و اقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها ، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات ، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد ،و إن المؤتمر البرلماني الإسلامي لقضية فلسطين و دعوة وفود الممالك الإسلامية إلى لندن للمناداة بحقوق العرب في الأرض المباركة لظاهرتان طيبتان و خطوتان واسعتان في هذا السبيل ، ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية ، حتى إذا تم ذلك للمسلمين نتج عنه الاجتماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد ، ومجتمع الشمل ، ومهوى الأفئدة ، وظل الله في الأرض .

الإخوان والهيئات المختلفة

الإخوان المسلمون و الهيئات الإسلامية

و الآن و قد أفصحت عن رأي الإخوان و موقفهم في كثير من المسائل العامة التي تشغل أذهان الأمة في هذه الأوقات ، أحب كذلك أن أفصح لحضراتكم عن موقف الإخوان المسلمين من الهيئات الإسلامية في مصر ، ذلك أن كثيرا من محبي الخير يتمنون أن تجتمع هذه الهيئات و تتوحد في جمعية إسلامية ترمي عن قوس واحدة ، ذلك أمل كبير و أمنية عزيزة يتمناها كل محب للإصلاح في هذا البلد .

والإخوان المسلمون يرون في الهيئات الإسلامية على اختلاف ميادينها تعمل لنصرة الإسلام ، ويتمنون لها جميعا النجاح ، و لم يفتهم أن يجعلوا من منهاجهم التقرب منها والعمل على جمعها و توحيدها حول الفكرة العامة ،و قد تقرر هذا في المؤتمر الدوري الرابع للإخوان

بالمنصورة و أسيوط في العام الفائت ، و أبشركم بأن مكتب الإرشاد حين أخذ يعمل على تنفيذ هذا القرار ، وجد روحا طيبة من كل الهيئات التي اتصل بها و تحدث إليها ، مما يبشر بنجاح المسعى مع الزمن إن شاء الله .

لإخوان و الشبان

كثيرا ما يتردد سؤال على أذهان الناس : ما الفرق بين جماعة الإخوان المسلمين و جماعة الشبان ؟ و لماذا لا تكونان هيئة واحدة تعملان على منهاج واحد ؟

و أحب قبل الجواب أن أؤكد للذين يسرهم وحدة الجهود و تعاون العاملين أن الإخوان و الشبان و بخاصة هنا في القاهرة ، لا يشعرون بأنهم في ميدان مناقشة و لكن في ميدان تعاون قوي وثيق ، و أن كثيرا من القضايا الإسلامية العامة يظهر فيها الإخوان و الشبان شيئا واحدا و جماعة واحدة ، إذ أن الغاية العامة مشتركة و هي العمل لما فيه إعزاز الإسلام وإسعاد المسلمين ، و إنما تقع فروق يسيرة في أسلوب الدعوة و في خطة القائمين بها و توجيه جهودهم في كلتا الجماعتين ، و إن الوقت الذي ستظهر فيه الجماعات الإسلامية كلها جبهة موحدة غير بعيد على ما أعتقد ، الزمن كفيل بتحقيق ذلك إن شاء الله .

لأخوان المسلمون و الأحزاب

و الإخوان المسلمون يعتقدون أن الأحزاب السياسية المصرية جميعا قد وجدت في ظروف خاصة ، و لدواع أكثرها شخصي لا مصلحي ، و شرح ذلك تعلمونه حضراتكم جميعا .
و يعتقدون كذلك أن هذه الأحزاب لم تحدد برامجها و مناهجها إلى الآن ، فكل منها سيدعي أنه يعمل لمصلحة الأمة في كل نواحي الإصلاح ، و لكن ما تفاصيل هذه الأعمال ، و ما وسائل تحقيقها ؟ و ما الذي أعد من هذه الوسائل ، و ما العقبات التي ينتظر أن تقف في سبيل التنفيذ ، و ما أعد لتذليلها ؟ كل ذلك لا جواب له عند رؤساء الأحزاب و إدارات الأحزاب ، فهم قد اتفقوا في هذا الفراغ ، كما اتفقوا في أمر آخر هو التهالك على الحكم وتسخير كل

دعاية حزبية وكل وسيلة شريفة وغير شريفة في سبيل الوصول إليه ، و تجريح كل من يحول من الخصوم الحزبيين دون الحصول عليه .

ويعتقد الإخوان كذلك أن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم وعطلت مصالحهم ، وأتلفت أخلاقهم ، ومزقت روابطهم ، وكان لها في حياتهم العامة والخاصة أسوأ الأثر .

ويعتقدون كذلك أن النظام النيابي ، بل حتى البرلماني ، في غنى عن نظام الأحزاب بصورتها الحاضرة في مصر ، و إلا لما قامت الحكومات الائتلافية في البلاد الديمقراطية فالحجة القائلة بأن النظام البرلماني لا يتصور إلا بوجود الأحزاب حجة واهية وكثير من البلاد الدستورية البرلمانية تسير على نظام الحزب الواحد وذلك في الإمكان .

كما يعتقد الإخوان أن هناك فارقاً بين حرية الرأي والتفكير والإبانة والإفصاح والشورى والنصيحة ، وهو يوجبه الإسلام ، و بين التعصب للرأي و الخروج على الجماعة والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام في الأمة وزعزعة سلطان الحكام ، و هو ما تستلزمه الحزبية و يأباه الإسلام و يحرمه أشد التحريم ، و الإسلام في كل تشريعاته إنما يدعو إلى الوحدة و التعاون .

هذا مجمل نظرة الإخوان إلى قضية الحزبية و الأحزاب في مصر ، و هم لهذا قد طلبوا إلى رؤساء الأحزاب ، منذ عام تقريبا أن يطرحوا هذه الخصومة جانبا و ينضم بعضهم إلى بعض ، كما اقترحوا التوسط في هذه القضية على صاحب السمو الأمير عمر طوسون .. كما طلبوا من جلالة الملك حل هذه الأحزاب القائمة حتى تندمج جميعا في هيئة شعبية واحدة تعمل لصالح الأمة على قواعد الإسلام .

و إذا كانت الظروف لم تساعد في الماضي على تحقيق هذه الفكرة ، فإننا نعتقد أن هذا العام كان دليلا على صدق نظرة الإخوان ، و كان مقنعا لمن كان في شك بأنه لا خير في بقاء هذه الأحزاب ، و سيواصل الإخوان جهودهم في هذا السبيل ، و سيصلون إلى ما يريدون بتوفيق الله و فضل يقظة الأمة ، و بتوالي فشل رجال الأحزاب في ميادينها سيتحقق قطعا ناموس الله : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ) (الرعد:١٧) .

يظن بعد رجال الأحزاب أننا إنما نقصد بهذه التعاليم هدم حزبهم خدمة لغيره من الأحزاب و جريا وراء منفعة خاصة ، و ليس أدل على خطأ هذه النظرة من أن هذا الوهم قد سرى إلى نفوس الأحزاب جميعا ، فكثير من رجال الوفد من يتهم الإخوان المسلمين بأنهم يعملون

لمحاربته و بأنه وحده هو المقصود بهذه النعوت و الأوصاف ، و بأن الإخوان إنما يحملون الناس على محاربته و الانفضاض عنه ، و بأنهم إنما يقصدون بذلك خدمة الحكومة و تقوية الأحزاب الممثلة فيها ، و في الوقت الذي نسمع فيه هذه التهمة بعينها من أحزاب الحكومة أيضا ! فهل هناك دليل أصدق من هذا على أن الإخوان يقفون من الجميع موقفا واحدا ، و يصدرون فيه عن عقيدتهم ، و يعملون فيه بوحي من ضمائرهم و إيمانهم ؟

أحب أن أقول لإخواننا من دعاة الأحزاب و رجالها : إن اليوم الذي يستخدم فيه الإخوان المسلمون لغير فكرتهم الإسلامية البحتة لم يجئ و لن يجئ أبدا ، و إن الإخوان لا يضمرون لحزب من الأحزاب أيا كان خصومة خاصة به ، و لكنهم يعتقدون أن من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها و لا ينقذها إلا أن تنحل هذه الأحزاب كلها ، و تتألف هيئة وطنية عاملة تقود الأمة إلى الفوز وفق تعاليم القرآن الكريم .

و بهذه المناسبة أقول إن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب ، يعتقدون أنها مسكن لا علاج ، و سرعان ما ينقض المؤتلفون بعضهم على بعض ، فتعود الحرب بينهم جذعة على أشد ما كانت عليه قبل الائتلاف ، و العلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التي أوجدتها و لكل زمان دولة و رجال كما يقولون .

الإخوان و مصر الفتاة

بهذه المناسبة لابد لي أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من جماعة مصر الفتاة ، لقد تكونت هذه جماعة الإخوان منذ عشر سنين و تكونت جماعة مصر الفتاة منذ خمس سنين ، فجمعية الإخوان تكبر جمعية مصر الفتاة بضعف عمرها تماما ، و مع هذا أيضا شاع في كثير من الأوساط أن جماعة الإخوان من شعب مصر الفتاة ، و سبب ذلك أن مصر الفتاة اعتمدت على الدعاية و الإعلان في الوقت الذي آثر فيه الإخوان العمل و الإنتاج ، و ما علينا من ذلك كله فسواء أكان الإخوان هم الذين رسموا لمصر الفتاة طريق الجهاد و العمل للإسلام أم أن مصر الفتاة هي التي أظهرت الإخوان و أبرزتهم للناس ، و هم قد ولدوا قبلها و سبقوها إلى الجهاد و الميدان بخمس سنوات أي بمثل عمرها ، و ذلك أمر نظري لا يقيم له الإخوان وزنا ، و لكن الذي أنبه أريد أن إليه في هذه الكلمة أن الإخوان المسلمين لم يكونوا يوما من الأيام في صفوف مصر الفتاة و لا عاملين لها ، و لا أقصد بذلك أن أنال منها أو من القائمين بدعوتها و لكن أقول تقريرا للواقع ، و أن جريدة مصر الفتاة هاجمت الإخوان و اتهمتهم تهما

غير صحيحة و زعمت أنهم يعتدون عليها و يتهمونها و ذلك غير صحيح أيضا ، و نحن معشر الإخوان لم نعقب على ما كتب أهمية ، و لا نحب أن نؤاخذ بشيء منه ، و أرجو أن يكون ذلك هو شعور الإخوان جميعا .

و أن كثيرا من الناس يود لو اتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين ، و هذا شعور ما من شك في أنه جميل نبيل فليس أجمل من الوحدة و التعاون على الخير ، و لكن من الأمور ما ليس يفصل فيه إلا الزمن وحده ، في مصر الفتاة من لا يرى الإخوان إلا جماعة وعظية و ينكر عليهم كل ما سوى ذلك من منهاجهم ، و في الإخوان من يعتقد أن مصر الفتاة لم ينضج في نفوس كثيرا من أعضائها بعد المعنى الإسلامي الصحيح نضجا يؤهلهم للمناداة بالدعوة الإسلامية خالصة سليمة ، فلنترك للزمن أداء مهمته و إصدار حكمه و هو خير كفيل بالصقل و التميز .

و ليس معنى هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل إنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير و إلى الخير ، و لا يحب الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم ، و في ميدان الجهاد متسع للجميع .

ذلك موقفنا من مصر الفتاة مادامت قد أعلنت أنها ليست حزبا سياسيا ، و أنها تعمل و ستظل تعمل للفكرة الإسلامية و لمبادئ الإسلام ، و في ذلك الواقع انتصار جديد لمبادئ الإخوان المسلمين .

بقي أمر أخير ذلك هو موقف الإخوان من مصر الفتاة في قضية تحطيم الحانات ، و معلوم أنه ما من غيور في مصر يتمنى أن يرى فوق أرضها حانة واحدة ، و قد ألقى الإخوان تبعة هذا التحطيم على الحكومة قبل الذين فعلوه ، لأنها هي التي أحرجت شعبها المسلم هذا الإحراج و لم تفطن إلى ذلك التغيير النفساني ، و الاتجاه الجديد القوي الذي طرأ عليه من تقديس الإسلام و الاعتزاز بتعاليمه ، و قديما قيل : (قبل أن تأمر الباكي بالكف عن البكاء ، تأمر الضارب بالكف أن يرفع العصا) ، و نحن نعتقد أن هذا التحدي لم يحن وقته بعد ، و لابد من تخير الظروف المناسبة أو استخدام منتهى الحكمة فيه ، و إنفاذه بصور أخف ضررا و أبلغ في الدلالة على المقصد ، كلفت نظر الحكومة إلى واجبها الإسلامي ، و بالرغم من أن المقبوض عليهم لم يعترفوا ، فقد وجه الإخوان إلى معالي وزير العدل ، يلفتون نظر معاليه فيه إلى وجوب النظر في هذه القضية نظرة خاصة تتناسب مع الدافع الشريف فيها ، و أن يسرع بإصدار تشريع يحمي البلاد من هذه المهالك الخلقية .

موقف الإخوان من الدول الأوربية

بعد هذا البيان عن موقف الإخوان المسلمين ، الذي يمليه عليهم الإسلام ، في أهم القضايا الداخلية ، يحسن أن أتحدث إلى حضراتكم عن موقفهم من الدول الأوربية :

الإسلام كما قدمت يعتبر المسلمين أمة واحدة تجمعها العقيدة و يشارك بعضها بعضا في الآمال و الآلام ، و أي عدوان يقع على واحدة منها أو على فرد من المسلمين فهو واقع عليهم جميعا .

أضحكني و أبكاني حكم فقهي رأيته عرضا في كتاب (الشرح الصغير على أقرب المسالك) قال مؤلفه : (مسألة امرأة مسلمة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها و افتداؤها و لو أتي ذلك على جميع أموال المسلمين) ، و رأيت مثله قبل ذلك في كتاب (البحر في مذهب الأحناف) ، رأيت هذا فضحكت و بكيت و قلت لنفسي : أين عيون هؤلاء الكاتبين لتنظر المسلمين جميعا في أسر غيرهم من أهل الكفر و العدوان ؟؟

أريد أن استخلص من هذا أن الوطن الإسلامي واحد لا يتجزأ ، و أن العدوان على جزء من أجزائه عدوان عليه كله ، هذه واحدة ، و الثانية أن الإسلام فرض على المسلمين أن يكونوا أئمة في ديارهم ، سادة في أوطانهم ، بل ليس ذلك فحسب ، بل إن عليهم أن يحملوا غيرهم على الدخول في دعوتهم و الاهتداء بأنوار الإسلام التي اهتدوا بها من قبل .

و من هنا يعتقد الإخوان المسلمين أن كل أمة اعتدت و تعتدي على أوطان الإسلام دولة ظالمة لابد أن تكف عن عدوانها و لابد من أن يعد المسلمون أنفسهم و يعملوا متساندين على التخلص من نيرها .

إن إنجلترا لا تزال تضايق مصر رغم محالفتها إياها ، و لا فائدة في أن نقول إن المعاهدة نافعة أو ضارة أو ينبغي تعديلها أو يجب إنفاذها فهذا كلام لا طائل تحته و المعاهدة غل في عنق مصر و قيد في يدها ما في ذلك شك ، و هل تستطيع أن تستطيع أن تتخلص من هذا القيد إلا بالعمل و حسن الاستعداد ؟ فلسان القوة هو أبلغ لسان ، فلتعمل على ذلك و لتكتسب الوقت إن أرادت الحرية و الاستقلال .

و إن إنجلترا لا تزال تسئ إلى فلسطين و تحاول أن تنقص من حقوق أهلها ، و فلسطين وطن لكل مسلم باعتبارها من أرض الإسلام و باعتبارها مهد الأنبياء ، و باعتبارها مقر المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، ففلسطين دين على إنجلترا للمسلمين لا تهدأ ثائرتهم حتى توفيهم فيه حقهم ، و إنجلترا تعلم ذلك العلم ، ذلك ما حداها إلى دعوة ممثلي البلاد الإسلامية إلى مؤتمر لندن ، و آنا ننتهز هذه الفرصة فنذكرها بأن حقوق العرب لا يمكن أن تنقص ، و بأن هذه الأعمال القاسية التي يدأب ممثلوها على ارتكابها في فلسطين ليست مما يساعد على حسن ظن المسلمين بها ، و خير لها أن تكف هذه الحملات العداونية عن الأبرياء الأحرار ، و

إنا لنبعث لسماحة المفتي الأكبر من فوق هذا المنبر أخلص تحيات الإخوان المسلمين بهـا و أطيب تمنياتهم ، و لن يضر سماحته و لن يضير آل الحسيني أن تفـتش دورهـم و يـسجن أحرارهم ، فذلك مما يزيدهم شرفا إلى شرفهم و فخارا إلى فخارهم ، و نذكر الوفود الإسلامية بمكر إنجلترا و خداعها و بوجوب القيام على حقوق العرب كاملة غير منقوصة .

و بهذه المناسبة أذكر الإخوان بأنه قد تألفت لجنة عامة بدار الشبان المسلمين من الجمعيـات الإسلامية جميعا ، للتعاون على إصدار قرش موحد يوزع من أول الـسنة الهجريـة إغاثـة لفلسطين المجاهدة ، و سيحل هذا الطابع محل كل الطوابع المختلفة لكل الهيئات ، فالوصـية للإخوان أن يبذلوا جهدهم في تشجيع هذه اللجنة بتوزيع طوابعها حين صدورها ، و بتصفية ما قد يكون موجودا لديهم من حساب الطوابع القديمة و إعادتها إلى المكتب لإعدامها .

و لنا حساب بعد ذلك مع إنجلترا في الأقاليم الإسلامية التي تحتلها بغير حق ، و التي يفرض الإسلام على أهلها و علينا معهم أن نعمل لإنقاذها و خلاصها .

أما فرنسا التي ادعت صداقة الإسلام حينا من الدهر فلها مع المسلمين حساب طويـل ، و لا ننسى لها هذا الموقف المخجل مع سوريا الشقيقة ، و لا ننسى لها موقفها في قضية المغـرب الأقصى و الظهير البربري ، و لا ننسى أن كثيرا من إخواننا الأعـزاء ، شـباب المغـرب الأقصى الوطني الحر المجاهد ، في أعماق السجون و أطراف المنافي ، و سيأتي اليوم الذي يصفى فيه هذا الحساب ، (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران:١٤٠) .

و ليس حسابنا مع إيطاليا بأقل من حسابنا مع فرنسا ، فطرابلس العربية المسلمة الجارة القريبة العزيزة ، يعمل الدوتشي و رجاله على إفنائها و إبادة أهلها و استئصالها و محـو كـل أثـر للعروبة و الإسلام منها ، و كيف يكون فيها أثر للعروبة و الإسلام و قد اعتبرت جزءا مـن إيطاليا ؟ و لا يجد الدوتشي بعد ذلك مانعا يمنعه من أن يدعي أنه حامي الإسلام و أن يطلـب بهذا العنوان صداقة المسلمين !!

أيها الإخوان المسلمون :

هذا الكلام يدمي القلوب و يفتت الأكباد ! و حسبي هذه الفواجع في هذا البيان ، فتلك سلسلة لا آخر لها ، و انتم تعرفون هذا ، و لكن عليكم أن تبينوه للناس ، و أن تعلموهم أن الإسـلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلاً عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال فالموت خير من هذه الحياة ، حياة العبودية و الرق و الاستذلال ! و أنـتم إن فعلتم ذلك و صدقتم الله العزيمة فلابد من النصر إن شاء الله :

 (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (المجادلة:٢١) .

خاتمة

أيها الإخوان المسلمون :

تقدمت إليكم في هذا البيان بخلاصة وافية موجزة عن فكرتكم في مظهرها الخاص ، و اليوم كنت احب أن استعرض معكم بعض المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية القائمة في المجتمع المصري ، و إن شئتم فقولوا الإسلامي فإن الداء يكون واحدا في الجميع ، لولا ضيق الوقت ، و لولا أن ينحصر في واحدة هي : ضعف الأخلاق و فقدان المثل العليا ، و إيثار المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، و الجبن عن مواجهة الحقائق ، و الهروب من تبعات العلاج ، و الفرقة قاتلها الله ، هذا هو الداء ، و الدواء كلمة واحدة أيضا هي ضد هذه الأخلاق ، هي علاج النفوس أيها الإخوان و تقويم أخلاق الشعب :

 (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس:٩-١٠) .

أيها الإخوان المسلمون :

لقد قام هذا الدين بجهاد أسلافكم علي دعائم قوية من الإيمان بالله ، و الزهادة في متعة الحياة الفانية وإيثار دار الخلود ، والتضحية بالدم والروح والمال في سبيل مناصرة الحق ، وحب الموت في سبيل الله والسير في ذلك كله علي هدي القرآن الكريم .

فعلي هذه الدعائم القوية أسسوا نهضتكم و أصلحوا نفوسكم وركزوا دعوتكم وقودوا الأمة إلي الخير ، (وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) (محمد:٣٥) .

أيها الإخوان المسلمون :

لا تيئسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين ، وحقائق اليوم أحلام الأمس ، وأحلام الأمـــس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . ولا زال في الوقت متسع ، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد . والضعيف لا يظل ضعيفاً طول حياته ، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص:٥) .

إن الزمان سيتمخض عن كثير من الحوادث الجسام ، وإن الفرص ستسنح للأعمال العظيمة ، وإن العالم ينظر دعوتكم دعوة الهداية والفوز والسلام لتخلصه مما هو فيـــه مـــن آلام ، وإن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وترجون من الله ما لا يرجون ، فاستعدوا واعملوا اليوم ، فقد تعجزون عن العمل غداً .

لقد خاطبت المتحمسين منكم أن يتريثوا و ينتظروا دورة الزمان ، و إني لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا و يعملوا فليس مع الجهاد راحة :

 (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:٦٩)

وإلي الأمام دائماً ...

والله أكبر ولله الحمد

حســـن البنـــــا

في مؤتمر طلبة الإخوان المسلمون